الكتاب الثاني

تاريخ الأدب في العصر الأموي

للأستاذ الدكتور

رفعت زكي محمود

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

في حياة كل أمة فترة ، تلعب الأحداث فيها دورا مهمــا ومــؤثرا تبرز من خلاله عظمة الأمة ، وما تنطوي عليه طبيعتها من عناصــر العظمة ، وما تقدمه لأبنائها من أسباب التقدم والازهار .

والأدب هو أحد وأهم تلك الأسباب ؛ لأنه يسجل التــراث ، بمــا يحتويه من خصائص التعبير والتصوير وما يبثه في الوجدان والفكــر ، حتي ترسخ في الضمير العام للأمة ، عناصر الازدهار ، والاعتــزاز بذلك التراث .

وأدبنا العربي ، في عصر الدولة الأموية ، قطع مسيرة ، أبرزت عظمة أمتنا ، بصدق تعبيره ،وعمق تصويره ، لتلك الفتــرة ، التــي حفلت بالعديد من تلك المؤثرات .

وهذا ــ البحث ــ يلقي الضوء علي أهم ما انضوي تحت لــواء تلك الدولة العربية ، من شخصيات متميزة ، وما أفرزته مــن أعمــال أدبية ــ عدت تراثا تليدا لهذه الأمة ، التي يحتاج شبابها من الدارســين وطلاب المعرفة إلي تقديم هذا النبراس ، ليبعث فيهم بــوارق الأمــل ويثير فيهم عظيم الأسباب لاستعادة الثقة فــي هــذه الأمــة العربيــة العظيمة .

والله من وراء القصد ، وهو الهادي إلي سواء السبيل،،

القاهرة : رمضان المبارك ١٤٢٨هـ

أ.د/ رفعت زكي

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الأول
الأدب العربي في العصر الأموي

هو ذلك النتاج الأدبي ، من شعر أو نثر ، الذي جادت به قرائح الأدباء في الفترة التي كان لبني أمية ، السيطرة علي الأرض ، التي وحد شعوبها الدين الإسلامي الحنيف ٠

وهذا الأدب ـ علي اختلاف أجناسه ، وتعدد مشاربه ـ يصور لنا الأحداث التي ماجت بها أرجاء الدولة ، من : تأييد ومعارضة وحروب ومهادنة ،وخصومات ومصالحة ؛ لأن " الأدب في حقيقته مرآة ناصعة صافية ، تنعكس عليها حياة أهله ،وما تأثروا به من أحداث عامة ، وظروف خاصة[١] ٠

كما أنه تعبير صادق عن المعاني والقيم والأحاسيس التي يحتويها فكر الأديب ووجدانه، والمفسر لما ينعكس عنه من نتاج في تعبيره عما يدور حوله من أحداث ، ووجهة نظره ، وبيان تفاعله ، تجاه تلك الأحداث ٠

كما أنه يبين منهج الأديب ، في اختيار اللون الذي يعبر به ، من حيث غلبة الوجدان فيكون شعرا ٠ أو إضاءة الفكر والعقل ، فيأتي نثرا ، يؤثر بذلك إيجابا أو سلبا ، طبقا لمجريات الأحداث ٠

---

(١) الأدب العربي المعاصر في مصر ص ١١ د / شوقي ضيف٠ دار المعارف مصر٠

وفي العصر الأموي : ازدهر الأدب ازدهارا كبيرا ، وتقدم تقدما رائعا ،وانتشر انتشارا واسعا ، إذ توفرت له العوامل والعناصر، التي دفعته بقوة إلي الانتشار والرقي ، والتي جعلته يعبر بقوة عن تلك المرحلة من عمر الأدب العربي ، وتميزها عن بقية عصوره .

* * *

قيام دولة بني أمية :

اتصل حبل بني أمية بسدة الحكم ، عندما بدأ عهد الخلافة الإسلامية بمبايعة الخليفة الراشد أبي بكر الصديق ــ رضي الله عنه ــ عندئذ " وفد إليه بنو أمية،في لهفة ، ليشتركوا مع إخوانهم في الجهاد ، ليعوضوا ما فاتهم من نصر الإسلام ، وإعلاء شأنه ، فوجههم أبوبكر لحرب الروم في الشام ، وعين (يزيد بن أبي سفيان قائدا ، فاشتركوا في موقعة (اليرموك) حتي حقق الله النصر للمسلمين . وبعد الفتح عين (عمر) يزيدا واليا علي دمشق ، ثم عقب موته عين أخاه (معاوية) بدلا منه ، كما ولاه أيضا علي (الأردن) [٢] .

وقد اتخذ معاوية من دمشق ــ التي كان واليا عليها منذ عهد عمر ــ اتخذها عاصمة له ــ و(دمشق) هذه هي المدينة الكبيرة العريقة ، ذات التاريخ القديم من عهد الآراميين ، والتي شهدت مختلف الأقوام ، إلي أن صارت عاصمة إقليم سوريا في عهد الروم ، ثم تحولت إلي مدينة إسلامية عربية ، ومضي عليها منذ هذا التحول نصف قرن ،

---

(٢) عبدالله بن مروان صـ ١٢١ د/ ضياء الدين الريس. سلسلة أعلام العرب (١٠) ط المؤسسة العامة .

وفدت عليها ، وأقامت فيها من خلاله وفود العرب ، من : قبائل وجنود وساسة وعلماء وتجار ،وتكلمت باللسان العربي ، وأصبحت مدينة إسلامية ... فكانت أهم مدينة في العالم في ذلك الوقت "[٣] .

وكان معاوية سياسيا يعرف كيف يصل إلي قلوب الناس فتقرب إلي أهل الشام ، واستمالة الأعوان ، وتجميع المؤيدين له ولحكمة. فأغدق الأموال ، وأكثر من الهبات والأعطيات، مما جعله أثيرا عند أهل الشام ، فامتلك قلوبهم ، وأصبح السيد المطاع ، الذي يقول فيلبي ، كما عاملهم بالرفق والحلم ، وعرف كيف يسيطر سياسيا علي أهل الشام .

" وفي سنة ٣٥ هـ / ٦٥٥م ، خرجت من عرب مصر والبصرة والكوفة [٤] وسارت جماعات الثوار إلي المدينة المنورة ، حيث الخليفة سيدنا عثمان معلنة ثورتها ضده، وغضبها عليه ، ولم يواجه الخليفة الموقف بالحزم وإنما لجأ إلي مفاوضة الثائرين ،ووعدهم بإصلاح الخطأ . ولزم أهل الشام بلادهم معربين عن تأييدهم لسيدنا عثمان ، بينما لم يرض أهل المدينة عن موقفه .

وأخذ الثوار من المصريين العودة إلي بلادهم ، غير أن رسالة وقعت في أيديهم تحوي أمرا إلي وإلي مصر، بالقبض علي الثوار وحبسهم ، فجددوا الثورة وعادوا إلي المدينة ، وحاصروا الخليفة مطالبين بعزله .

---

(٣) عبدالملك بن مروان صـ ١٣ .
(٤) الدولة الأموية د/ إبراهيم أحمد العدوي صـ ٥٨ . مكتبة الشباب ١٩٨٨م

وتطورت الأحداث بسرعة ، فتسلق الثوار حـــائط بيـــت ســـيدنا عثمان ، وقتلوه غيلة ، وهو جالس يقرأ القرآن ، كما قطعــت أصـــابع زوجته (نائلة) وهي تدافع عنه "[٥] ٠

وحينما قتل عثمان بويع علي بالخلافة [٦] غير أنه لم تكتمل لــه البيعة، وظهر الانشقاق في المجتمع الإسلامي برفض هــذه البيعـــة ، ورفض شخصية الخليفة ، فانشق معاوية ، طمعا في الخلافة التي كان يمهد لها منذ بعيد ، ونقض البيعه طلحة والزبير ، وخرجا من المدينة قاصدين مكة التي كانت معقلا لثوار الجزيرة بقيادة عبدالله بن الزبيـــر وكانت السيدة عائشة (أم المؤمنين) تكون جبهة رابعة من المعارضــة لعلي وخلافته ، والتي استندت في ثورتها علي المطالبة بالثأر لمقتــل عثمان رضي الله عنه ٠

كان مقتل عثمان ، هو الشرارة التي أطلقت هذه الثورة ضد علي وكونت هذا الحلف المعارض ، الذي تحرك تجاه البصرة استعدادا للقاء قوات الخليفة علي بن أبي طالب ٠

وإزاء تلك الحشود ، وجد سيدنا علي نفسه مضـــطرا للخـــروج والقضاء علي هذه الفتنة ،ودارت المعركة المعروفة بموقعة الجمل سنة ٣٦هـــ نسبة إلي جمل السيدة عائشة رضي الله عنها ، والـــذي كانـــت تجلس في هودجه وتشرف علي المعركة ٠

---

(٥) الدولة الأموية د/ إبراهيم أحمد العدوي صـــ٥٨ مكتبة الشباب ١٩٨٨م
(٦) فصول من تاريخ الأدب فيعصر صدر الإسلام د/ ناجي فؤاد ١١٨ ٠

وتمكن سيدنا علي ــ رضي الله عنه ، مــن تحقيــق النصــر ، وهزيمة هذا الحلف ،وتم قتل طلحة والزبير ، وإعادة الســيدة عائشــة معززة مكرمة إلي ديارها ٠

وبدأ علي ــ رضي الله عنه يتهيأ للجولة الحاسمة بلقاء معاوية ، وقد كان معاوية يستثير الناس ، ويحرضهم بعرض (قميص عثمــان) الذي كانت نائلة ٠ روج عثمان قد أرسلته ملطخا بدم الخليفة الشهيد ، ومعه أصابعها التي قطعت وهي تدافع عنه ، وهي وســائل الغــرض الأول منها إقصاء علي عن الخلافة ، وتولية معاوية تحقيقــا لآمالــه القديمة ، ورغبته الحريصة علي السيادة والسيطرة٠

والتقي الفريقان في (صفين) سنة ٣٧ هــ ، وبسرعة لاح النصر وأوشك جيش معاوية علي الفرار ، لولا تدخل (عمرو بــن العــاص) بدهائه ، إذ أشار بوضع المصاحف علي أســنة الرمــاح ، عارضــا التحكيم ، والالتجاء إلي كتاب الله للقضاء بين المتحاربين ٠

وتمت الخديعة الماكرة ، التي أشاعت الفرقــة والانقســام بــين المسلمين ، فانقسم جيش علي نفسه إلي فريقين مؤيد للتحكيم، وفريــق عارض التحكيم معلنا أنه خديعة ٠ فكان التشيع لعلي الذي خرجت منه الشيعة ، وكان الخروج الذي نبعت منه الخوارج وفي الأبيات التالية ، وهي للوليد بن عقبة ، أخي عثمان لأمه، تحمل التهديــد للهاشــميين ، والاتهام لعلي بقتل عثمان ، يقول: [٧]

بني هاشم ،ردوا سلاح ابن اختكم ∴ ولا تنهبوه لا تحــل مناهبــه

---

(٧) الأغاني للأصبهاني ١٢٢/٥ ط دار الكتب ٠

بني هاشم لا تعجلوا بإقــادة ∴ سواء علينا قــاتلوه وســالبه
وإنا وإياكم وما كــان مــنكم ∴ كصدع الصفا لا يرأب الصدع شاعبه
بني هاشم كيف التعاقد بيننــا ∴ وعند علي ســيفه ونجائبــه
لعمرك لا أنسي ابن أروى وقتلــه ∴ وهل ينسين الماء ــ ما عاش ــ شاربه
هم قتلوه كي يكونوا مكانــه ∴ كما غدرت يوما بكسري مرازبه
وإني لمجتاب إليكم بجحفــل ∴ يصم السميع جرسه وجلائبه

* * *

وتري في هذه الأبيات شدة الكراهية والعداوة ، وانصرام عــري القرابة ووحدة الدم بين أبناء البيت الواحد ،وتوجيــه ســهام الاتهــام والاضطهاد لمن نام في فراش البني ــ صلي الله عليه وســلم ــ ليلــة الهجرة ، والذي رباه المصطفي علي كل القيم وأسباب الرجولة.

* * *

تم التحكيم ، وخدع عمرو بن العاص بدهائه ، حين قدم أبا موسي الأشعري ــ نائب الخليفة. وأطلت الفتنة برأسها ،وحدث هرج ومرج بين المسليمن.

في أعقاب هذه الأحداث، تمكن أحد الخوارج هو عبدالرحمن بــن ملجم من قتل الخليفة علي ــ رضي الله عنه .

ويظهر دور الشعر في تسجيل هـذا الصـراع والاقتتـال بـين المسليمن ، فهذا (عمر بن الأهلب الضبي ، وقد جرح ، فمر به رجـل من أصحاب علي ورآه يفحص رجله الجريحة ويقول: (٨)

لقد أوردتناحومة الموت أمنا ∴ فلم تنصرف إلا ونحـن رواء

لقد كان في نصرابن ضبة أمه ∴ وشـيعتها مندوحـة وغنـاء

أطعنا قريشا ضلة من حلومنا ∴ ونصرتنا أهل الحجاز عنـاء

أطعنا بني تميم بن مرة شقوة ∴ وهل تـيم إلا أعبـد وإمـاء

ونحس روح العصبية القبلية ،وعدم القناعة الذاتية فـي خـوض غمار هذا المعترك المقيت ، بين أبناء العقيدة الواحدة، والدم العربـي الواحد.

وعلي الجانب الآخر يحكي لنا الشعر ، مسـجلا تلـك الأحـداث الدامية ، حين سار سيدنا علي بن أبي طالب ،" وكان معه نابغة بنـي جعدة ، فحدا به يوما ، فقال يمدح الخليفة سيدنا علي: (٩)

قد علم المصـران والعـراق ∴ أن عليـا فحلهـا العتـاق

أبـيض جحجـاح لـه رواق ∴ إن الألي جـاروك لا أفـاقوا

لكـم سـباق ولهـم سـباق ∴ قـد علمـت ذلكـم الرفـاق

وعندما " أرسل معاوية عمرو بن العاص في جند كثير ، فأخـذ يمد أبا الأعور ، ويزيد بن أسد ،وأرسل علي الأشترفي جمع عظـيم ،

---

(٨) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٥٢/٣ ، ٢٥٣ .
(٩) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٨٠/٣ ، ٢٨١ .

وجعل يمد الأشعث وشيئا ، فاشتد القتال، قال عبدالله بن عوف الأزدي الأحمري: (١٠)

خلوا لنا ماء الفرات الجاري ∴ أو اثبتـــوا لجحفـــل جـــرار

لكل قـــرم مســـتميت شـــاري ∴ مطـــاعن برمحـــه كـــرار

ضراب هامات العدي مغـــوار ∴ لم يخش غير الواحد القهـــار

ويصور كعب بن جعيل حيرة الأمة الإسلامية في هـــذه الحـــرب المهلكة التي تنذر بأوخم العواقب للأمـــة ،وتجعـــل مســـتقبلها يشـــوبه الضياع والدمار ، فيقول (١١) :

أصبحت الأمة في أمر عجب ∴ والملك مجموع غدا لمن غلب

فقلت قولا صادقا غير كـــذب ∴ إن غدا تهلك أعـــلام العـــرب

* * *

ويفخر سيدنا علي بن أبي طالب ــ رضي الله عنه ــ عندما رأي بشائر نصره علي جيش معاوية فيقول(١٢) :

لمن راية سوداء يخفـــق ظلهـــا ∴ إذا قيل قدمها حضين تقـــدما

ويقدمها في الموت حتي يردها ∴ حياض المنايا تقطر الموت والدما

أذقنا ابن حرب طعننا وضرابنا ∴ بأســـيافنا حتـــي تـــولي وأحجمـــا

جزي الله أقواما صابروا في لقـــائهم ∴ لدي الموت قوما ما أعف وأكرما

وأطيب أخبارا ، وأكرم شـــيمة ∴ إذا كـــان أصـــوات الرجـــال تغمغمـــا

---

(١٠) المرجع نفسه ٢٨٤/٣ ، ٢٨٥ .
(١١) المرجع السابق ٢٩٦/٣ .
(١٢) المرجع السابق ٢٩٩/٣ ، ٣٠٠ .

ربيعة أعني إنهم أهل نجـــدة .·. وبأس إذا لا قوا خميسا عرمرما

* * *

وحين يدلي جرير بدلوه في الأحداث ، يهجو من غدروا بـــالزبير في حربه ضد معاوية ، فيقول[١٣] :

غدرتم بـــالزبير فمـــا وفيـــتم .·. وفـــاء الأزد إذ منعـــوا زيـــادا

فأصـــبح جـــارهم بنجـــاة عـــز .·. وجـــار مجاشـــع أمســـي رمـــادا

فلو عاقدت حبـــل أبـــي ســـعيد .·. لـــذاد القـــوم مـــا حمـــل النجـــادا

وأدني الخيل من رهج المنايا .·. وأغشـــاها الأســـنة والصـــعادا

* * *

وتقع الفتنة ،وتغرس أنيابها في أبناء البلد الواحد ، الذين تعصـــب كل فريق منهم للبلد الذي انتقلوا إليه ، فيتصارع ويتقاتل أبناء اليمن في البصرة ، وأبناء اليمن فيالكوفة ،وربيعة البصرة مع أبناء ربيعةالكوفة " فظهرت بمن البصرة علي يمن الكوفة فهزمتهم ، وربيعة البصـــرة علي ربيعة الكوفة فهزمتهم ، ثم عاد من الكوفة فقتـــل علـــي رايـــتهم عشرة : خمسة من همدان ،وخمسة من سائر اليمن ٠

ولما قتل سيدنا علي ـــ رضي الله عنه ، ساد جو مـــن الحـــزن والألم لهذه المأساة في جانب ، وعم الفرح والسرور في الجانب الآخر ، وعبر الشعر عن كلا الاتجاهين ٠

(١٣) المرجع السابق ٣٦٣/٣ ٠

فهذا ابن أبي مياس المرادي يزهو ويفتخر لمقتل علي ، فيقول[١٤]:

نحن ضربنا يالك الخير حيدرا ∴ أبا حسن مأمونة فتفطرا

ونحن خلعنا ملكه من نظامه ∴ بضربة سيف إذ علا وتجبرا

ونحن كرام في الصباح أعزة ∴ إذا المرء بالموت ارتدي وتأزرا

وفي الجانب المؤيد للإمام الشهيد ، يطلق أبو الأسود الدؤلي صرخته معلنا حزنه وألمه ، وراثيا الخليفة الشهيد ، ومنددا بمعاوية ، فيقول[١٥]:

ألا أبلغ معاوية بن حرب ∴ فلا قرت عيون الشامتينا

أفي شهر الصيام فجعتمونا ∴ بخير الناس طرا أجمعينا

فتلتم خير من ركب المطايا ∴ ورحلها ومن ركب السفينا

ومن لبس النعال ومن حذاها ∴ ومن قرأ المثاني والمئينا

إذا استقبلت وجه أبي حسين ∴ رأيت البدر راع الناظرينا

لقد علمت قريش حيث كانت ∴ بأنك خيرها حسبا ودينا

* * *

وأما (ابن ملجم) قاتل الإمام الخليفة ،فلم يهمله الشعر ، وإنما سجل عليه فعلته الشنعاء ، وتوعده بسوء المصير ، والخلود في النار مع الشياطين ، فقال بكر بن حسان الباهري[١٦]:

---

(١٤) الكامل في التاريخ ٣/٣٩٤ .
(١٥) الكامل في التاريخ ٣/٣٩٥ .
(١٦) الكامل في التاريخ ٣/٣٩٦ .

قل لابن وفلجم والأقــدار غالبــة ∴ هدمت للدين والإسلام أركانــا

قتلت أفضل من يمشي علي قدم ∴ وأعظم النـــاس إســلاما وإيمانـــا

وأعلم الناس بالقرآن ثــم بمـــا ∴ سن الرســول لنـــا شــرعا وتبيانـــا

صهر النبي ، ومــولاه ، وناصــره ∴ أضحت مناقبـــه نـــورا وبرهانـــا

وكان منه علي رغم الحسود له ∴ مكان هارون بن موسي بن عمرانـــا

ذكرت قاتله والدمع متحــدر ∴ فقلت سبحان رب العرش سبحانا

إني لأحسبه ما كان من إنس ∴ كلا ، ولكنه قد كـــان شـــيطانا

كما يبين الشاعر سبق الإصرار والترصد عند القاتل ، والتزامـــه بجريمته الكبري في قوله[١٧] :

قد كان يخبرهم (هذا) بمقتلــه ∴ قبـــل المنيـــة أزمانـــا فأزمانـــا

فلاعفـــا عنـــه ســـوء فعلتـــه ∴ ولا سقي قبر عمران بن قحطانـــا

ياضربة من شقي ما أراد بهـــا ∴ إلا ليبلغ من ذي العــرش رضــوانا

بل ضربة من غوي أوردته لظي ∴ وسوف يلقى بها الرحمن غضبانا

كأنه لم يرد قصــدا بضــربته ∴ إلا ليصلى عذاب الخلد نيرانـــا

ولما كانت (موقعة الجمل) من أشد المعارك التي دارت بين جيش معاوية وجيش سيدنا علي ــ رضي الله عنه ــ وقـــام مقـــام العـــدوي الحرث الضبي ،فما رؤي أشد منه ، وجعل يقول[١٨] :

نحن بنوضبة أصحاب الجمــل ∴ نبـــارز القـــرن إذا القـــرن نـــزل

تنعى ابن عفان بأطراف الأســل ∴ الموت أحلي عندنا مـــن العســـل

(١٧) الكامل لابن الأثير ٣/٣٩٦ .
(١٨) الكامل لابن الأثير ٣ /٢٤٩ .

ردوا علينـــا شـــيخنا ثـــم بجـــل

* * *

وكالن (عمرو) يحرض أصحابه يوم الجمل ، وقد أخذ الخطام – أي خطام جمل السيدة عائشة – ويقول:

يأمتـــا يـــاعيش لـــن تراعـــى ∴ كـــل بنيـــك بطـــل شـــجاع

ويقول :

نحـــن بنوضـــبة لا يفـــر ∴ حتـــي نـــري جمـــا جمنـــا تخـــر

يخـــر منـــه الحلـــق المحمـــر

ويقول:

يأمتايـــا زوجـــة النبـــي ∴ يازوجـــة المبـــارك المهـــدي

وكان ممن أخذ بخطام الجمل : محمد بن طلحة ، فأنفذه بعضـــهم (برمح) فقتله ، وفي ذلك يقول :

وأشـــعث قـــوام بآيـــات ربـــه ∴ قليل الأذي فيما تري العين مسلم

هتكت له بالرمح جيب قميصـــه ∴ فخـــر صـــريعا لليـــدين وللفـــم

يذكرني حاميم والـــرمح شـــاجر ∴ فهلا تـــلا حـــاميم قبـــل التقـــدم

علي غير شيء أن ليس تابعا ∴ عليا ، ومن لا يتبع الحق ينـــدم

* * *

وبعد مقتل سيدنا علي يوبع الحسن بن علي بالخلافة ، ولكنه رأي أن يحقن دماء المسلمين، فتنازل إلي معاويـــة ، فـــي عـــام الجماعـــة ٤١هـ/٦٦١م .

وبذلك أصبح معاوية خليفة ، وجمع في يده كل مظاهر السلطة ، وحول الخلافة إلي ملك يتوارثه أبناؤه من بعده .

وقد جعل معاوية للملك " شارات وعلامات ، منهـا السـرير أي العرش، واتخذ لنفسه الحرس، كما أنـه اسـتحدث المقصـورة فـي الجامع[١٩] وجعلها مقاما للصلاة خاصة به ... كما أنه أول من خطـب قاعدا، وكان يستقبل الوفود ويستمع إلي شكاواهم واتخذ مـن دمشـق عاصمة لدولته ، فقد نقل عاصمة الخلافة إلي دمشق في بلاد الشام[٢٠].

ويلاحظ اهتمام الخلفاء الأمويين بمطاهر الفخامة والضخامة فـي مظاهر الحياة ،مما أسس لظهور الفنون المختلفة في العمـارة والآداب وقد كانوا يعقدون في قصورهم الفخمة لقاءات للشعراء ، فيما عـرف باسم المجالس الأدبية:

فكان الشعر أحد جناحي النهضة الأدبية فـي العصـر الأمـوي وكان النثر هو الجناح الثاني الذي حلقت به هذه النهضة الحضارية في سماء الأدب .

وكان مما ساعد علي ازدهار الأدب يومئـذ تلـك الانقسـامات والخلافات السياسية والاجتماعية والفكرية في المجتمع الأموي ، حيث وجد ذلك الانقسام الحاد بين طوائف المجتمع مـن شـيعة وخـوارج وأمويين وزبير بين، وبالطبع كان لكل فريق أدباؤه الذين يدافعون عن معتقدهم السياسي الذي ينضوون تحت لوائه ، منهم يدافعون ويناقحون

---

(١٩) الدولة الأموية ٦٥ .

(٢٠) دراسات في الأدب العربي د/ عمر الطيب السادسي /٣٧ دار الشروق.

يؤيدون فصيلهم ، وينتقدون مناوئيهم، فتباري الشعراء في تأييد مذاهبهم ،وتمجيد ما ينتمون إليه ويفتخرون به ، ويهجون ما يراه خصومهم ويزدرون به ، فارتفعت نبرة الفخر والهجاء، ونشطت ساحات التراشق بين الشعراء والخطباء ، وقد شجع الخلفاء الأمويون هذه الظاهرة متخذين منها سلاحا فعالا في تثبيت دعائم ملكهم .

ومن الملاحظ أن الشعراء والخطباء كانوا يفدون علي الخلفاء ينشدونهم ما يصفونهم به من الكرم والشجاعة ، وأحقيتهم في الخلافة وكان الخلفاء يعطونهم الوفير من العطاء نظير ما تجود به قرائحهم . كما أسهم ذلك في ازدهار الغناء الذي كانت تعقد له حلقاته في قصور الخلفاء .

وإلي جانب ذلك " كان الاتجاه الزهدي في الشعر، وصداه في الأدب ،مما كان له الشأن الكبير هناك [٢١] .

ولم يقف الأمر علي قصور الخلفاء ، بل شاركت المساجد في دفع هذا التيار الجارف ، الذي دفع مسيرة الأدب في ذلك العصر إلي أرفع المستويات .

أضف إلي ذلك ، أن الخلفاء الأمويين أنفسهم، كانوا أدباء فهم إما شعراء أو خطباء .

---

(٢١) المجالس الأموية وأثرها في نهضة الأدب صـ ٥ .
مقال للدكتور/ عبدالرحمن عبدالحميد . نشر بمجلة الكلية.

وهذا معاوية بن أبي سفيان ، أول خلفاء الأمويين حين وفد عليه " سبرة الجهيني" لم يجبه معاوية بشيء كلما تنجز جوابه، لم يزد على قوله[٢٢].

أدم إدامة حصن اوخذا بيدي .·. حربا ضروسا تشب الجزل والضرما

في جاركم وابنكم إذ كان مقتله .·. شنعاء شيبت الأصداغ واللمما

أعيا المسود بها والسيدون فلم .·. يوجد لنا غيرنا مولي ولا حكما

* * *

وزرعت أحداث الصراع في كثير من الناس حب الشعر والتمثل به في المواقف القتالية ، من مثل ما حدث من طلحة حين التقي طلحة بحكيم بن حبلة وهو في ثلاثمائة ،وجعل حكيم يضرب بالسيف ويقول:

أضربهم باليابس .·. ضرب غلام عابس

من الحياة آيس .·. في الغرفات نافس

فضرب رجل رجله فقطعها ، فحبا حتي أخذها ، فرمي بها صاحبه فصرعه ، وأتاه فقتله ، ثم اتكأ عليه وقال: [٢٣]

ياساقي لن تراعي .·. إن معي ذراعي

أحمي بها كراعي

وقال أيضا :

ليس علي أن أموت عار .·. والعار في الناس هو الفرار

والمجد لا يفضحه الدمار

---

(٢٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٠٢/٣ ، ٢٠٣ دار صادر / بيروت •

(٢٣) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢١٨/٣ دار صادر / بيروت •

* * *

وهكذا نري شدة معتقد الرجل ، بما رسخ في نفسه ، وقر في أعماقه ، وصلابته في الوصول إلي مبتغاه ، لا يضعفه بتر ساقه ، بل يزحف حتي يلتقطها ،ويضرب بها باترها ، وينقض عليه فيقتله مواسيا نفسه وساقه بهذه الأبيات ينشدها معلنا ترحيبه بالموت في سبيل مبدئه وهكذا يكون الثبات علي المبدأ .

* * *

وهناك غرض سياسي لجأ إليه خلفاء بني أمية ،وهو عرض سياسي يهدف إلي الهاء الناس عما أحدثه الأمويون من النظام الملكي الوراثي ، وكانت جمهرة المسلمين لا تقر هذا النظام ؛ لأنه يحيد عن النظام الشوري الذي وجد منذ تولي الخليفة الأول (أبوبكر الصديق) رضي الله عنه وظل معمولا به إلي أن أخذ معاوية البيعة لابنه يزيد .

أراد الخلفاء الأمويون أن يشغلوا الناس ويلهوهم عن هذا النظام ، فاتخذوا من الأدب وسيلتهم في ذلك، خاصة وأن الأدب ـ في ذلك العصر ـ كان يقوم مقام وسائل الإعلام في عصرنا هذا ، إذ ما يكاد الشاعر ينشد قصيدة ، أو الخطيب يلقي خطبة ، حتي يتناقلها الأفراد وبذلك استطاع الأمويون أن يبثوا في الشعب روح الأدب ، والإقبال عليه، بما أوجدوه من ثورة أدبية استغلوها في مدارسة الشعر ، والحديث عنه ، وأخبار العرب ، وماضيهم . فكان في كل لقاء بين

الخلفاء والشعراء يبرز لنا الجديد من الشعر بما فيه من تصوير جميل وأسلوب بديع[٢٤] .

وقد نمت حركة النقد الأدبي من خلال المساجلات الشعرية التــي كانت تدور بين الشعراء ، كما حدث في فن(النقائض) الذي كان بــين جرير والفرزدق والأخطل ـ كما سنذكر بعد ٠ وكما كان تناول بعض الشعراء لأقوال الآخرين، وبيان ما بها من مثالب وعيوب ، كما وقــع بين (أبيهلال العسكري) و(كثير) حيث عاب العســكري قــول كثيــر لعبدالعزيز بن مروان[٢٥] :

ومازالت رقاك تسل ضــغني .·. وتخرج من مكامنها ضــبابي

ويرقيني لك الراقــون حتــي .·. أجابك حيــة تحــت الحجــاب

* * *

وهكذا نري " تأثير هذه المجالس علي النقاد كالعسكري وغيــره فقد وضعوا أمثال هذه المجالس تحت أنظارهم متمعنين فيها، فاحصين لها مستخرجين ما فيها من أوجه الجمال ،أو مــا فيهــا مــن عيــوب وخروج ...... فبينما يجعل (كثير) عبدالعزيز راقيا تجيبه الزواحف ، نري مقابلها الصورة الأخري بما تضفيه علي الممدوح من غلو ، حيث جعل همم الممدوح لانقاس، ثم قرنها بعطائه الجزيل الذي كان مضرب

---

(٢٤) المجالس الأموية وأثرها في نهضة الأدب ٦ د/ عبدالرحمن عبدالحميد ٠
(٢٥) الصناعتين صــ ٥٥ لأبي هلال العسكري٠

الأمثال ، وحديث الدنيا . **فإذا جادت كفه عليالبر ، كان أندي من البحر في العطاء "[٢٦]** .

وهذه المجالس التي كان لها دور مهم في نهضة الأدب الأموي وازدهاره ،قد سجلت لنا أبعاد الحياة السياسية والاجتماعية في ذلك العصر ، وتركت لنا سجلا زاخرا بما حفظ من بيان أبعاد تلك الحياة ، وما حفلت به من أحداث ، وصورت لنا حقبة أثراها الأدب بما عكس عليها من مظاهر الحضارة العربية، كما أثرت وأسهمت في إلقاء الضوء علي أهم وسائل الحضارة في ذلك العصر ، وما كان لدي الخلفاء من وعي فني وأدبي أسهم في مسيرة التقدم والرقي لأمة العرب .

ولقد اتجه الخلفاء الأمويون إلي طريقة أخري يشغلون بها الناس عن نظامهم السياسي الملكي ، هي إثارة القبائل العربية ،وإشاعة ما سبق أن طمرته الأيام ، وقضت عليه سماحة الإسلام ، فبعثوا العصبية القبلية البغيضة نارا تحرق العقول وتسبيها ، وتمزق روابط الأخوة فتدميها . أثاروا تلك العصبية بين القيسية والمضرية ، بين اليمنية والمدنية ، مما أوقع الكثير من الحروب والفتن ، فأزهق الأرواح وأسال الدماء ، وهدم العمران، وأحال الأمن والسلام إلي جزع وفزع ، وفرار إلي الصحراء ، والاحتماء من الإنسان بالوحوش والصخر .

فكان لكن فريق شعراؤه وخطباؤه ، الذين يحاولون أن يزيلوا الران من علي القلوب ، ويحقنوا دماء الأهل، ويجمعوا الناس علي

(٢٦) المجالس الأموية صـ ٧ .

كلمة سواء ،ولكن ذهب كل ذلك أدراج الرياح ، وخلفت تلك المآســي لونا آخر من الأدب هو من أبرز ألوان الشعر الأموي ألا وهو :

الشعر السياسي : الذي لجأ فيه الشعراء إلــي الخلفــاء والأمــراء يمتدحونهم مشيدين بأسلوب حكمهم ، متعرضين لأعدائهم ، فرأينا سيلا من الفخر والهجاء ، وأزدهر هذان الغرضان ازدهارا عظيما ، وكــان كل شاعر يحاول أن يتفوق علي الآخرين انتظارا للرفد والعطاء مــن هؤلاء المسئولين.

وقد حاول بعض الأدباء أن يسلكوا منهج الدعوة والوعظ والدفاع عن الإسلام ،والدعوة إلي ما كان يتبادله شعراء القبائــل المتنــاحرة ، والفرق المتصارعة ، إلي التعبير عن سماحة الإسلام ،ودعوتــه إلــي الأخوة والتضامن . وذلك في مثل ما لجأ إليه الحسن البصري فــي موعظته التي يقول فيها :

" يابن آدم : بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعا ،ولا تبع آخرتــك بدنياك فتخسرهما جميعا .

يابن آدم : إذا رأيت الناس في الخير فنافسهم فيه، وإذا رأيــتهم في الشر فلا تغبطهم به . الثواء ها هنا قليل، والبقاء هناك طويل أمــا انه ــ والله ــ لا أمة بعد أمتكم ،ولا نبي بعد نبــيكم ،ولا كتــاب بعــد كتابكم ،أنتم تسوقون الناس والساعة تسوقكم ، وإنما ينتظر بــأولكم أن يلحق بآخركم. من رأى محمدا ــ صلي الله عليه وســلم ــ فقــد رآه غاديا رائحا لم يضع لبنة علي لبنة ، ولا قصبة علي قصبة " لقد كــان لكم في رسول الله أسوة حسنة " .

يابن آدم : طأ الأرض بقدمك ،فإنها عما قليل قبرك، واعلم أنك لم تزل في هدم عمرك ، منذ سقطت من بطن أمك ، فرحم الله رجلا نظر فتفكر فاعتبر ، واعتبر فأبصر ،وأبصر فصبر" ٠

خلفاء بني أمية	مدة الخلافة[٢٧]	
١- معاوية بن أبي سفيان	٤١ ـ ٦٠	
٢- يزيد بن معاوية	٦٠ ـ ٦٤	
٣- معاوية بن يزيد	٦٤ ـ ٦٤	
٤- مروان بن الحكم	٦٤ ـ ٦٥	
٥ - عبدالملك بن مروان	٦٥ ـ ٨٦	
٦ ـ الوليد بن عبدالملك	٨٦ ـ ٩٦	
٧ ـ سليمان بن عبدالملك	٩٦ ـ ٩٩	
٨ ـ عمر بن عبدالعزيز	٩٩ ـ ١٠١	
٩ ـ يزيد بن عبدالملك	١٠١ ـ ١٠٥	
١٠ - هشام بن عبدالملك	١٠٥ ـ ١٢٥	
١١- الوليد بن يزيد بن عبدالملك	١٢٥ ـ ١٢٦	
١٢- يزيد بن الوليد الأول	١٢٦ ـ ١٢٦	
١٣ - مروان الجعدي	١٢٧ ـ ١٣٢	

(٢٧) جواهر الأدب صـ ٣٦٦ .

ألوان الأدب فى العصر الأموي

يغلب عليه الطابع السياسي ، لأن كثرة هذا الأدب جاء تصويرا صادقا لحال الأمة ، وكأن الظروف العامة للدولة، وما عتراها من خصومات وانقسام ، كان لخدمة الأدب والجوانب السياسية ، إذ كل منهما يقدم للآخر كل جوانب الازدهار . ذلك لان الاتجاهين الرئيسين في الصراع السياسي تمثل في انبعاث إحن الماضي بين الجنوب ـ المتمثل في القبائل اليمنية ، وما اختصوا به من عوامل القوة والثروة ـ وبين القبائل الشمالية ، الذين كانوا بدوا مشتتين ، فلما ظهرت الدعوة الإسلامية في قبائل الشام، أثار ذلك حفيظة الجنوبيين ، وأطلت العصبية بوجهها القبيح بين الفصيلين وظهر أثر ذلك الانقسام عند وفاة النبي (ص) وانقسام المسلمين حول الخلافة . واشتد أوار هذا الخلاف منذ عهد معاوية وبقية خلفاء الأمويين ، الذين شجعوا هذه النعرة وكان لذلك خطر شديد في الشعر والخطابة وفي السياسة أيضا .

ثم ظهرت خلافات أخري بين العدنانين من بكر وتغلب، وأسهم الشعراء ، ومنهم الأخطل في إلهاب وإشعال نار تلك العصبية بأشعاره.

وكانت (مضر) قبيلة جرير، (يربوع) و(دارم) قبيلة الفرزدق مما أنتج ما عرفناه من أبرز ألوان الأدب في عصر بني أمية ، وهو (النقائض) .

ثم زاد الانقسام والعصبية حين وجدت الاتجاهات السياسية في أرجاء الدولة الأموية .

الاتجاهات السياسية
وأثرها في الأدب

أصبحت الدولة أموية رسميا ، بتولي معاوية الخلافة بعـد مـوت الإمام علي — رضي الله عنه ، وتنازل الحسن بن علي لمعاوية حقنـا لدماء المسلمين، ولكن هل خلت الدولة من الانقسام والتشرذم ؟

يجيب واقع الأحداث بخلاف ذلك ٠ فقد انبثقت عن هذه الفتنة عدة اتجاهات :

١- **كان العرب فيما بينهم حيين معروفين:** اليمنيـة والعدنانيـة ، وكانت القوة والثروة قديما لليمن ، بينما كان العـدنانيون في الشمال بدوا مشتتين ، يحكم كل قبيلة شـيخ مـنهم ، وحكم الشيخ قانون ملزم، فلما جاء الإسلام فيهم ، أحنـق اليمنيين أن يحوز هذا الفضل أولئك البدو٠ ومن هنا بدأت العصبية الداخلية بين العرب، وظهر هذا الخلاف العربي يوم وفاة الرسول (ص) إذ بدأ كل فصـيل يتطلـع إلـي الخلافة ويعتبر نفسه أحق بها من الآخر٠

٢- **انقسام العدنانيين أنفسهم** : إلي عصبية بكر وعصبية تغلب وقد ظهر ذلك في شعر العصبيات للأخطل والقطـامي ، وهما من تغلب ٠

وفي **مضـر** التي كان منها قيس عيلان ٠ والذي جاء شعر الراعي مصورا لشعر العصبيات فيها ٠

ومن مضر : تميم ، برز جرير ، **الذي خلف** تراثا شـــعريا يثيـــر قرائح الأدباء والشعراء إلي عصرنا الحاضر ، والذي كان لصراعه الأدبي مع الفرزدق ،ما أدخل النقـــائض دائـــرة الاهتمـــام والبحـــث والفرزدق ينتمي إلي قبيلة دارم ٠

وإذا أمعننا النظر في هذا الانقسام والتعصب بين العدنانيين فإننـــا سنجد قريشا تشكل عنصرا من أبرز عناصر هذا الانقسام، لسبب مـــا أشاعته بأحقيتها في خلافة سيدنا رسول الله ــ صلي الله عليه وسلم ــ التي ظهرت عقب وفاة الرسول ــ صلي الله عليه وســـلم ــ مباشـــرة وبرز الصراع بين بطنين من أصل واحد ، وجد واحد، هو عبد مناف ،وتجلي الانقسام ــ بعد ذلك ــ في احتدام الصراع بين الأحفـــاد مـــن أتباع الأمويين ، وتمكنهم من الاستيلاء علي الحكم ،وقدرتهم علي نشر ألويتهم فوق الأراضي التي دانت لهـــم ،وبـــين الفصـــائل الأخـــري المتناحرة ، مما هيأ لزيادة النيران المتأججة بين الأتباع ٠

وفي بداية انجلاء تلك المأساة ، وانكشاف طرائقها ، كانت هنـــاك ثلاثة اتجاهات تمثلت في :

١- **العلويين** (الشيعة) الذين ظلوا مع الإمام علي ــ رضي الله عنه ٠

٢- **الخوارج** : الذين رفضوا التحكيم ، وثاروا علي الإمام٠

٣- **الأمويين** : الذين انحازوا إلي معاوية بن أبي ســـفيان ثـــم ظهر اتجاه رابع هو :

٤- **الزبيريون** : وهم أتباع عبدالله بن الزبير ، الذي ظهر في مكة والمدينة ،وبايعه أتباعه علي الخلافة · وأعلن نفسه خليفة في مكة والمدينة ·

وكان لكل اتجاه من هذه الاتجاهات شعراؤه وخطباؤه ، الذين يعرضون أبعاد اتجاههم ، وينتقدون ما يراه أصحاب الاتجاهات الأخري ، ويهاجمون شعراء وخطباء تلك الاتجاهات المعارضة مما أثري الحياة الأدبية ، فارتقي الفخر ،وبلغ بأصحابه أعلي درجات البيان بما حوي من معان وصور وألفاظ ، مما خصص الأدب الأموي بأنه أدب سياسي، كما اتسع نطاق الهجاء ، وكثرت أغراضه وتشعبت وأتي الشعراء فيه بما يجعله يعيد قوة الشعر إلى ما كان عليه في العصر الجاهلي·

وإليك إيضاحا بهذه الاتجاهات السياسية ، وآثارها في الأدب العربي في العصر الأموي ·

والأسباب التي أدت إلي تعدد هذه الاتجاهات السياسية وتشعبها ترجع إلي عدة عوامل :

١- **نفسية** ، منها ــ كما أشرت ــ إلي ذلك التنافس والتباغض والحقد ، الذي كان شائعا بين القبائل اليمنية وغيرها من قبائل الشمال ، سواء داخل شبه الجزيرة ، أم في بقية الأقاليم والولايات ·

وقد كانت قريش موضع الحقد من سائر العرب ، لادعائها أحقية الخلافة دون سواها" (٢٨) ، ونشأ عن ذلك أن انعكس العداء والحقد علي بني أمية الذين كانوا قريشيين ، وكانوا يقولون بـأنهم ورثـة عثمان بن عفان ــ رضي الله عنه ــ وأنه منهم ، وأنهم الرعاة لكل حقوقه ، ومنها الثأر من قتلته وإن كان الدافع الحقيقي هو رغبتهم في الخلافة ،وإعادة الأمجاد القديمة لهم ٠

٢- **سياسية** : كان الباعث الأول فيها ، تلـك العصـبيات القبليـة المقيتة ، التي أشعل أوراها دعاة الثورة والتمرد علي الحكومة والدعوة إلي الخروج بسبب عدم شرعية استيلاء الأمويين علي الحكم ، أو الدافع لهؤلاء الثوار ،وقولهم بأحقية أصحابهم فـي ذلك الحكم ٠

وأصبحت المدن الكبري في الدولة تعكس ذلك الصراع علي ألسنة شعرائها وخطبائها ، كما أن سكان البوادي ــ الذين يعيشون حياة كدح وإملاق ، كان لهم شعراؤهم الذين يصورون شظف حياتهم ، ونتيجـة لذلك القحط والفقر ، ظهرت جماعات اللصوص وقطاع الطرق، وكان من هؤلاء الشذاذ من عرفوا بالصعاليك الذين امتلأ شعرهم بتصـوير البيئة والحياة القاسية ، مما استتبع " ظهور بعض قطاع الطـرق مـن أمثال طهمان بن عمرو الكلابي الشاعر ، كما استتبعت غير قليل مـن شعر الفخر والهجاء، علي نحو ما نجد في مهاجاة شبيب بن البرصـاء

(٢٨) تاريخ الأدب الأموي د/ سليمان ربيع ١٤٤ ٠

الذبياني لعقيل بن علفة ، وأرطاة بن سهية ،ومهاجاة ابن ميادة الذبياني للحكم الخضري "(٢٩) .

وعن شدة المهاجاة – نعرف أنها أنجبت تلك المعركة الأدبية التي أنجبت (فن النقائض) الذي أصبح سمة مميزة للعصر الأموي كله.

٣- وكان من مظاهر الانقسام السياسي ، ما لجأ إليه (بعض عمال الصدقات) الذين كانوا يعاملون الناس ، وبخاصة الضعاف والفقراء ، فقد كانوا " يقسون في جمعها علي العرب أحيانا ، ومن ثم ارتفعت أصوات في هذا العصر الأموي ، تشكو منهم مر الشكوي(٣٠) .

أضف إلي ذلك – العامل الاقتصادي – وهو مرتبط بالجانب السياسي ، أقوي ارتباط أن مركز الثروة والعطاء ، قد تركز في أيدي الخلفاء في دمشق، مما أدي إلي : ضعف النشاط الشعري في بعض الأماكن داخل الدولة ، نتيجة هجرة الشعراء إلي الخلفاء لنيل نوالهم . وكما يقولون : (تسقط الطير حيث ينتثر الحب) .

هذا ما حدث ، " فقد دفع شظف العيش في هذه البيئة البدوية كثيرين من شعرائها للوفود علي الخلفاء في دمشق ، والولاة في مكة والمدينة والكوفة والبصرة يطلبون نوالهم ، ومن ثم كانوا يترددون بين البدو والحضر... (٣١) .

---

(٢٩) تاريخ الأدب العربي – العصر الإسلامي – شوقي ضيف ١٤٩ ،وانظر : الأغاني ٢٧١/١٢ ،وأخبار اللصوص /١٠٠ للسكري.

(٣٠) المرجع والصفحة.

(٣١) تاريخ الأدب العربي – العصر الإسلامي . شوقي ضيف ١٤٩ .

ومن هنا ، فإننا لابد أن نلاحظ أن نشاط الشعر في نجد وبـوادي الحجاز لهذا العصر كان أقل مما كان عليه في الجاهلية[٣٢] وهكذا نجد الضعف في مجالي الفخر والهجاء ٠

بينما نجد أن الغزل قد كثروانتشر " إذ تكاثر شعراؤه كثرة مفرطة وتكاثرت قصصه الغرامية ، وخاصة في بني عذرة ،وبني عـامر"[٣٣] وقد جاء ذلك نتيجة للفراغ وانتشار أماكن اللهو ،وكثـرة دور الغنـاء وما يتردد فيها وما تحتاجه من شعر الغزل ، الذي يستخدم في الغناء٠

* * *

وخلال هذا الخضم السياسي ظهرت الاتجاهات السياسية التي كان لها كبير الأثر في تطور الأدب العربي في العصر الأموي:

في بداية الصراع : تولي معاوية الخلافة ، بعد أن تنازل له الحسن ابن علي ــ رضي الله عنه ــ وقد انبثقت ثلاثة اتجاهات ، لكل منهـا فكرة ومعتقده ، الذي يستند إليه في التبرير لمـا يـدعوا إليـه وهـذه الاتجاهات هي :

١- **الأمويون** : وهم القائلون بأن منهم عثمان بن عفان ــ رضي الله عنه ــ الخليفة الشهيد ، الذي غيلة ظلما وعـدوانا ، وقـالوا إن عثمان منهم وأنهم يطالبون بالثأر له ، وذهبوا ــ مـدعين ــ أن علي بن أبى طالب ــ رضي الله عنه ــ مالأ الثوار ، ويعـرف قتلة عثمان ،ولا يريد أن يقتص منهم ، أو يسلمهم لبنـي أميـة ،

---

(٣٢) المرجع والصفحة ٠
(٣٣) نفس المرجع ١٥٠ ٠

فامتنعوا عن مبايعة علي ، حتي يسلمهم الجناة ، أو يقتص منهم علنا ، وبلغوا بالعناد والمكابرة أقصي حد ، فأعلن معاوية نفسه خليفة علي المسلمين ، كاشفا بذلك عن الهدف غير المعلن ، وهو توليتهم الخلافة ، واستعادة المجد التليد للبيت الأموي.

عبقرية معاوية :

١- يعد (معاوية بن أبي سفيان) أحد دهاة العرب ، الذين اشتهروا بالذكاء الخارق وقد استطاع بدهائه وحنكته ، أن يحكم قبضته علي أطراف دولته، وأن يكسر شوكة خصوم حكومته ، فقد استطاع أن يكسر شوكة الخوارج ، ويترضي الشيعة والأنصار ويرضي كلا من القيسية (عدنان) واليمنية ، فأصهر إلي بني كلب (من اليمن) وتزوج منهم : ميسون بنت بجدل الكلبية ، أم يزيد ابنه ، وبذلك ضمن ولاء الحيين مدة حياته " (٣٤) .

٢- وتميز معاوية كذلك بأنه " كان من أجلاء الصحابة ،واختاره النبي – عليه الصلاة والسلام • ليكون من كتابه ، وروي عن الرسول مائة وثلاثة وستين حديثا، وروي عنه من الصحابة:ابن عباس وابن عمر، والنعمان بن بشير وغيرهم • وشهد مع الرسول – صلي الله عليه وسلم – موقعة حنين.

---

(٣٤) في الأدب الإسلامي والأموي د/ سليمان ربيع ١٤٦ مطبعة السعادة بمصر ١٩٦٣م .

ولم يثبت عليه بعد أن أسلم إلا ما يدل علي حسن إسلامه ، ورعايته لأداء واجباته وتدينه"[٣٥] .

٣- ومما يدل علي عبقريته العسكرية ، أنه " هو مؤسس البحرية الإسلامية في عهد عثمان ، واستولي علي قبرص ، وأوغل فاتحا في بلاد الروم حتي وصل إلي(عمورية) ،ولبث واليا علي الشام نحو عشرين عاما" [٣٦] .

٤- تميز (معاوية) أيضا : بأنه كان كريما جوادا ، يبذل بسخاء ، تأليفا للنفوس وجذبا للقلوب ، وهو في رفده لا يفرق بين أتباعه وخصومه ، فقد وفد عليه: (الحسن بن علي) ـ رضي الله عنه ، فأحسن وفادته وأكرمه.

" حكي ـ ابن عبدربه ـ عن أبي بكر بن شيبة ، قال :

وفد الحسن بن علي ـ رضي الله عنهما ـ علي معاوية بعد عام الجماعة ، فقال له معاوية " والله لأحبونك بجائزة ما أجزت بها أحدا قبلك ، ولا أجيز بها أحدا بعدك" فأمر له بمائه ألف" [٣٧] .

وكذا يحكي ـ ابن عبدربه ـ في العقد الفريد عن العتبي أن : " زيد بن منية ـ وفد علي معاوية ـ من البصرة ، وهو أخو يعلي بن منية ـ صاحب جمل عائشة ـ رضي الله عنها ـ ومتولي تلك

---

(٣٥) الوليد بن عبدالملك ـ سلسلة أعلام العرب ١٠٧ د/ سيدة اسماعيل الكاشف ص ١١٨ المؤسسة المصرية العامة .

(٣٦) المرجع السابق ـ صـ ١٢٢ .

(٣٧) أدب الوفادة والسفارة.للمؤلف صـ١٥٨ ـ وانظر:العقد الفريد ٢٦٤/١ .

الحروب ،ورأس أهل البصرة ، وكان عتبة بن أبي سفيان قد تزوج ابنة يعلي بن منية ، فلما دخل علي معاوية ، شكا إليه دينا لزمه .

فقال: ياكعب . أعطه ثلاثين ألفا . فلما ولي ، قال : وليوم الجمل ثلاثين ألفا أخرى، ثم قال له : الحق بصهرك ـ يعني عتبة ـ فقدم عليه مصر ، فقال : إني سرت إليك شهرين ، أخوض فيهما المتالف . ألبس أردية الليل مرة ، وأخوض في لجج السراب أخري ، موقرا من حسن الظن بك ، وهاربا من دهر قطم ، ودين لزم . بعد غني جدعنا به أنوف الحاسدين ،فلم أجد إلا إليك مهربا ، وعليك معولا " .

فقال عتبة : مرحبا بك وأهلا ، إن الدهر أعاركم غني ، وخلطكم بنا ، ثم استرد ما أمكنه أخذه ، وقد أنقى لكم منا مالا ضيعة معه ، وأنا واضع يدي ويدك بيد الله " وأعطاه ستين ألفا ، كما أعطاه معاوية رحمه الله [٣٨] .

ويتجلي كرم معاوية مع خصومه ، وتسامحه وعفوه عنهم ، فيما حدث في وفادة النابغة الجعدي فقد قال : عمر بن شبة : كان (النابغة الجعدي) شاعرا مقدما ، إلا أنه كان إذا هجا غلب ، وقد هاجي أوس بن مغراء ، وليلي الأخيلية ، وكعب بن جعيل ، فغلبوه ،وهو أشعر منهم مرارا ، وليس فيهم من يقرب منه ، وكان قد خرج مع علي . رضوان الله عليه ـ إلي صفين ، فكتب معاوية إلي مروان ، فأخذ أهل النابغة وماله ، فدخل النابغة علي معاوية ، وعنده مروان ، فأنشده :

من راكب يأتي ابن هند بحاجتي ∴ علي النأي ، والأنباء تنمي وتجتلب

---

(٣٨) أدب الوفادة والسفارة . للمؤلف صـ ١٥٨ ، ١٥٩ .

ويخبر عني ما أقول ابن عامر .:. ويغم الفتي ، يأوي إليه المتعصب
فإن تأخذوا أهلي ومالي بظنة .:. فإني لأحرار الرجال مجـرب
صبور علي ما يكره المرء كله .:. سوي الظلم،إني إن ظلمت سأغضب

فالتفت معاوية إلي مروان ، فقال : ما تري ؟ قال : أري ألا تـرد عليه شيئا، فقال: ما أهون عليك أن يقطع علي عرضي ، ثـم ترويـه العرب ، أما والله إن كنت لممن يرويه ، اردد عليه كل شيء إخذته ، ثم أقحمته سنة (٣٩) .

وكانت الوفود تأتيه من أقاصي الدولة : من خراسان والعـراق ، ومن اليمن ، تستجديه وتطلب رفده وعطاءه ،وكما كانت الرجال تفـد إليه ، كانت النساء كذلك، فكان يستقبلهن بالتكريم والجود ، مدعما بذلك ملك بني أمية ، غارسا الحب في القلوب، نازعا منها ما علق بها مـن موجدة وشنآن .

فعن عامر الشعبي قال: (٤٠)

" وفدت سودة بنت عمارة بن الأشتر الهمدانية ، علي معاوية بـن أبي سفيان، فاستأذنت عليه ، فأذن لها ، فلما دخلت سلمت عليه .

فقال لها : كيف أنت يابنة الأشتر؟ .

قالت : بخير يا أمير المؤمنين .

قال لها : أنت القائلة لأخيك :

---

(٣٩) نفس المرجع ١٦٤،١٦٥،وانظر:خزانة الأدب للبغدادي ٣/١٧١، ١٧٢ .
(٤٠) أدب الوفاءة والسفارة صـ ١٧٧ ، ١٧٨ وانظر العقد الفريد ـ تحقيـق / محمد سعيد العريان ١/٢٩١ ، ٢٩٢ .

شمر كفعل أبيك يابن عمـــارة ∴ يوم الطعان وملتقي الأقـــران

وانصر عليا والحسين ورهطه واقصد لهند وابنهـــا بهـــوان

إن الإمام أخا النبـــي محمـــد علم الهدي ومنـــارة الإيمـــان

فقد الجيوش ، وسر أمام لوائه قدما بأبيض صـــارم وســـنان

قالت : يأمير المؤمنين . مات الرأس ، وبتر الذنب ، فدع عنـــك تذكار ما قد نسي .

قال : هيهات . ليس مثل مقام أخيك ينسي.

قالت : صدقت والله يأمير المؤمنين ، ما كان أخي خفـــي المقـــام ذليل المكان ، ولكن كما قالت الخنساء :

وإن صخرا لتأتم الهداة بـــه ∴ كأنه علم فـــي رأســـه نـــار

وبالله أسأل يا أمير المؤمنين . إنك للناس سيد . ولأمورهم مقلد ، والله سائلك عما افترض عليك من حقنا ، ولاتزال تقـــدم علينـــا مـــن ينهض بعزك ، ويبسط سلطانك ، فيحصدنا حصاد السنبل ،ويدوســـنا دياس البقر ، ويسومنا الخسيسة ،ويسألنا الجليلة ،هذا ابن أرطاة قدم بلادي ، وقتل رجالي ، وأخذ مالي ،ولولا الطاعة لكان فينا عز ومنعة فإما عزلته فشكرناك ، وإما لا فعرفناك .

فقال معاوية : إياي تهددين بقومك ؟ والله لقد هممت أن أردك إليه علي قتب أشرس، فينفذ حكمه فيك .

فسكتت ، ثم **قالت :**

صلي إلا له علي روح تضمنه ∴ قبر ، فأصبح فيه العدل مدفونا

قد حالف الحق لا يبغي به ثمنا .·. فصار بالحق والإيمان مقرونا

قال : ومن ذلك ؟

قالت: علي بن أبي طالب ، رحمه الله تعالي .

قل : ما أري عليك منه أثرا .

قالت : بلي أتيته يوما في رجل ولاه صدقاتنا ، فكان بيننا وبينه ، ما بين الغث والسمين، فوجدته قائما يصلي ، فانفتل من الصلاة ، ثم قال برأفة وتعطف : ألك حاجة ؟ .

فأخبرته خبر الرجل ، فبكي ، ثم رفع يديه إلي السماء ، فقال : اللهم إني لم آمرهم بظلم خلقك، ولا ترك حقك " ثم أخرج من جيبه قطعة من جراب ، فكتب فيه ، " بسم الله الرحمن الرحيم . ﴿ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ الأعراف ٨٥ ، ٨٦ .

إذا أتاك كتابي هذا ، فاحتفظ بما في يديك ،حتي يأتي من يقبضه منك ، والسلام ". فعزله يا أمير المؤمنين ، ما خزمه بخزام ،ولا ختمه بختام .

فقال معاوية : اكتبوا لها بالإنصاف لها ، والعدل عليها .

فقالت : ألي خاصة ؟ أم لقومي عامة ؟ .

قال : وما أنت وغيرك ؟

قالـــت : هي والله إذا الفحشاء واللؤم ٠ إن لم يكن عدلا شاملا وإلا يسعني ما يسع قومي ٠

قال : هيهات : ألمظلم ابن أبي طالب الجرأة علي السلطان فبطيئـــا ما تفطمون ،وغركم قوله :

فلو كنت بوابا علي باب جنة ∴ لقلت لهمدان ادخلـــوا بســـلام

وقوله :

ناديت همدان والأبواب مغلقة ∴ ومثل همدان سني فتحة الباب

كالهندواني لم تفلل مضـــاربه ∴ وجه جميل وقلب غير وجاب

اكتبوا لها بحاجتها(٤١) :

وقد وفد علي معاوية عدد من النساء ، متهن : بكـــارة الهلاليـــة ، والزرقاء ابنة عدي ابن غالب بن قيس الهمدانية وام سنان بنت خيثمـــة المذحجية ، ودارمية الحجوبنة وأروي بنت الحارث بـــن عبـــدالمطلب وليلي بنت عبدالله بن الرحال ، وهي القائلة:

معاوي لم أكد آتيـــك تهـــوي ∴ برحلي رادة الأصـــلاب نـــاب

قريح الظهر يفرح أن يراهـــا ∴ إذا وضعت ولبتهـــا الغـــراب

تجوب الأرض نحوك ما تأني ∴ إذا ما الأكم قنعهـــا الســـراب

وكنت المرتجى وبك اســـتغاثت ∴ لتنعشها إذا بخل الســـحاب(٤٢)

---

(٤١) أدب الوفادة والسفارة ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ٠

(٤٢) ديوان ليلي الأخيلية تحقيق د/ واضح الصمد صـــ ٢١ ، ٢٢ دار صـــادر بيروت ٠

وظل أتباع هذا الاتجاه ، يؤازرون حكم بني أمية ، وخلفاءهم حتي استتب الأمر، وتوطدت أركان الحكم ، وظلوا علي هذا المسلك طوال قيام الدولة الأموية ، وكان أتباع هذا الاتجاه منتشرين في كل أرجاء الدولة ، وبخاصة الأماكن الموالية للأمويين، وكان لهذا الاتجاه أدباؤه من شعراء وخطباء .

يقول الجاحظ : "إن معاوية ولي زياد بن أبيه علي البصرة ، فقال لهم في خطبته (البتراء) " أيها الناس ، إنا أصبحنا لكم سادة ، وعنكم ذادة ،فسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا ، ونذود عنكم بفيء الله الذي خولنا ، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ، ولكم عيكنا العدل والإنصاف فيما ولينا ،فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا ... وادعوا الله بالصلاح لأئمتكم ، فإنهم ساستكم المؤدبون، وكهفكم الذي إليه تأوون" (٤٣) .

وقد كان شعر هذا الاتجاه منصبا ـ في الغالب ـ حول الخلافة وأحقيتها لبني أمية دون غيرهم، وعلي نظام الحكم، كما كان يهاجم خصوم الأمويين ،ويحاول أن يدحض دعواهم في أنهم الأصحاب الشرعيون لهذا الحكم .

ومما يصور القدرة الأدبية والنقدية لدي الخلفاء الأمويين ، ما روي أن يزيد(٤٤) ـ ابن معاوية ـ قال له ذات يوم مغضبا : أما سمعة قول عبدالرحمن بن حسان في ابنتك ؟ فقال: وما الذي قال؟

---

(٤٣) البيان والتبيين . الجاحظ ٢/٦٤ .

(٤٤) في الأدب الإسلامي والأموي سليمان ربيع صـ ١٤٦ .

قال : وهي زهراء مثل لؤلؤة الغوا ص ميزت من جوهر مكنون

قال : صدق • **فقال يزيد** : وقال :

وإذا ما نسبتها لـم تجـدها ∴ في سناء مـن المكـارم دون

قال : صدق • فقال (يزيد) وانه قال :

ثم خاصرتها إلي القبة الخضراء تمشـي فـي مرمـر مسـنون

فقال : (أي معاوية) كذب ،وأين هو من أختها هند! ولم يزد علـي هذا ، ولكن أخاها يزيد حمل كعب بن جعيل علي هجاء الأنصار فأبي، وأحاله علي الأخطل (لنصرانيته) فقال الأخطل:

لعن الإله من اليهود عصابة ∴ بالجزع بين جلاجل وصـرار

قوم إذا هدر العصير رأيـتهم ∴ حمرا عيونهم من المسـطار

خلوا المكارم تستم من أهلها ∴ وخذوا مساحيكم بني البخـار

ذهبت قريش بالمكارم كلهـا ∴ واللؤم بين عمـائم الأنصـار

* * *

فدخل النعمان بن بشير الأنصاري علي معاوية ،ثم حسر عمامتـه وقال : يامعاوية هل تري لؤما ؟ فقال : ما أري إلاكرما • قال: فمـا بال عبدالأراقم (يعني الأخطل) يقول فينا :

ذهبت قريش بالمكارم كلهـا ∴ واللؤم تحت عمائم الأنصـار

ثم هدد معاوية في قصة طويلة ، فاضطر معاوية أن يهبه لسانه ، واستشفع فيه يزيد ،فقبل فيه شفاعته" •

* * *

وهكذا نري مدي حلم معاوية ، وتمكنه من أن يستل سخيمة نفس من يحاول أن ينقل إليه غضبه وثورته ،وقدرته علي نقد ما يعرض أمامه من أشعار الآخرين ، وتفهمه لما في تلك الأشعار من صدق التعبير ، وروعة البيان ، وجلال الصورة ، ولكنه حين يجد التجاوز والخروج علي مبادئ الأخلاق والقيم الإنسانية العربية ، يكشر عن أنيابه غضبا ،ويهجم علي غريمه بكل جسارة ،مظهرا غيرته ونخوته. يقول الدكتور / شوقي ضيف موضحا السبب الفعال في إرساء قواعد الإسلام في دولته الجديدة، وبهذه القيم الروحية جميعا يقوم الإسلام فهو ليس عقيدة سماوية ، وفروضا دينية فحسب ، بل هو أيضا سلوك خلقي قويم ، إذ يدعو إلي طهارة النفس ، ونبذ كل الفواحش والرذائل ، ومراقبة الإنسان لربه في كل ما يأتي من قول أو فعل ، فإنه معروض عليه يوم القيامة " (٤٥) .

* * *

وبقيت هذه الروح مسيطرة علي خلفاء بني أمية ، وانتقلت بعد معاوية ــ رأس الفرع السفياني ــ إلي مروان بن الحكم . رأس الفرع المرواني في العصر الأموي . وفي عهده زادت الخلافات ، وظهرت اتجاهات عصبية جديدة بين القواد والخليفة ،وانتقلت إلي القبائل . وزاد الشقاق بين اليمينة والمضرية وكانت العصبيات أشبه بعصبيات الأحزاب السياسية التي تتصارع سياسيا بعزل معارضيها وتولية

---

(٤٥) تاريخ الأدب العربي (العصر الإسلامي) د. شوقي ضيف صـ١٥ ط دار المعارف ــ مصر .

أنصارها ومؤيديها ،وكان دور الأدباء في هذا الخضم من الصراع يتمثل في الانحياز إلي فصيلته التي تؤويه ، فكان شعراء الدولة وخطباؤها يجتهدون في تأييد رأي الخليفة ،وتبرير ما يذهب إليه ، وتفنيد وإبطال آراء الخصوم ٠

وعلي الرغم من ذلك الصراع ، كان الخلفاء حريصين علي جمع الشعراء والأدباء في قصورهم والاستماع إلي محاوراتهم الأدبية ومكافأة المجيدين منهم ،ووصلهم بالعطايا والمنح٠ وربما أثاروا بينهم ما يؤجج نيزان العصبية والقبلية ، مما يدفعهم إلي قدح زناد أفكارهم لينالوا من بعضهم بعضا ، وبما يشغل الناس بتناول أشعارهم ، مما يلهيهم عما تسلكه الدولة من سلوكيات قد لا يقرها بعضهم ، ولا غرو فالشعراء والخطباء يومئذ هم وسائل الإعلام التي تشغل وجدان المواطنين بما يجري علي ألسنتهم من أشعار وخطب ٠

" حدث أن اجتمع عند عبدالملك بن مروان عدد من علية القوم والشعراء ، فسألهم عن أرق بيت قالته العرب ، فأجمعوا علي بيت امرئ القيس :

وما ذرفت عليناك إلا لتضربي ∴ بسهميك في أعشار قلب مقتل(٤٦)

وقال الخليفة عبدالملك بن مروان لجمع من الشعراء :

أي بيت أمدح؟ فاتفقوا علي بيت زهير:

تراه إذا ما جئته متهللا ∴ كأنك تعطيه الذي أنت سائله(٤٧)

---

(٤٦) أمراء الشعراء ٠ السيد فرج صـ ٢١ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٧ ، ٢٨ ٠

(٤٧) المرجع السابق ٠

وقال الشعبي : دخلت علي **عبدالملك** ، وعنـــده رجـــل لا أعرفـــه فالتفت إليه عبدالملك وسأله : من أشعر الناس ؟ **فقال** : أنا ، فأظلم ما بيني وبينه ، **وقلت** : من هذا ياأمير المؤمنين ؟ **قال** : الأخطل ،**فقلت** : أشعر منه الذي يقول:

هـــذا غـــلام حســـن وجهـــه ∴ مستقبل الخير سريع التمـــام

قال الأخطل : صدق ياأمير المؤمنين ، النابغة أشعر مني (٤٨) .

وسئل الأخطل : أيكم أشعر؟

قـــــــال : أنا أمدحهم للملوك ، وأنعتهم للخمر والنساء ،وأما الفرزدق : فأفخرنا ،

وقال مروان بن حفصة: في المفاضلة بين الفرزدق وجرير :

ذهب الفرزدق بالفخار وإنمـــا ∴ حلوا الكلام وفجره لجرير(٤٩)

وقال جرير : النصراني ـــ يقصد الأخطـــل : أنعتنـــا للخمـــر والحمر (يقصد النساء) وأمدحنا للملـــوك ،وأنـــا مدينة الشعر ،

وقال سليمان بن عبدالملك : ثلاثة لا أسأل عنهم أبدا ، أنا أعلـــم العرب بهم : **الفرزدق وجرير والأخطل** ، **أما الأخطـــل فيجـــيء** سابقا أبدا ، **وأما الفرزدق فيجيء** مرة سابقا ومرة ثانيا ،

---

(٤٨)أمراء الشعراء ، السيد فرج صـــ ٢١ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٧ ، ٢٨ .

(٤٩) المرجع السابق ،

ومن أشهر وأرق المديح قول الفرزدق في مدح زين العابدين علي بن الحسين [٥٠].

هذا ابن خير عباد الله كلهــم ∴ هذا التقي النقي الطاهر العلم

إذا رأته قــريش قــال قائلهــا ∴ إلي مكارم هــذا ينتهــي الكــرم

يغضي حياء،ويغضى من مهابتــه ∴ فــلا يكلــم إلا حــين يبتســم

ما قــال (لا) إلا فــي تشــهده ∴ لولا التشــهد كانــت لاؤه نعــم

وكذلك قول جرير:

ألستم خير من ركــب المطايــا ∴ وأنــدي العــالمين بطــون راح

* * *

وهكذا، نجد الخلفاء الأمويين، يشجعون الأدباء، ويحفزون هممهم للإبداع، ويشحذون قرائحهم في الدفاع عن الاتجاه الأمــوي، والــذود عنه، والتصدي للمناوئين والمعارضين، وتحميس المقاتلين من القــوات المدافعة عن الخليفة والبيت الأموي، رافعين لواءهم، وضاربين رقاب أعدائهم، ورادين الأراضي التى استولوا عليها إلى حيازة بنــي أميــة، معلنين استيلاءهم وبسط سلطانهم عليها٠

أما مشكلة تحويل نظام الحكم إلي النمط الوراثي (الملكي)، وهــو ما لجأ إليه معاوية، مقيما بذلك أول حكم ملكي في الإسلام ــ وهو مما

---

(٥٠) أمراء الشعراء ٠ السيد فرج صـــ ٤٣ ٠

يعد من أولياته ومستحدثاته ــ فقد روي الشعبي(٥١): أن المغيـــرة بـــن شعبة، لما خاف العزل في خلافة معاوية، كتب إليه بأن سنه قد كبرت وعظمه قد رق، وأن أجله قد اقترب، وأن سفهاء قريش ســـفهوه، وأن أمير المؤمنين ــ يعني معاوية ــ أولي بعمله.

فرد إليه معاوية الكتاب قائلا: "أما ما ذكرت من كبر سنك، فأنت أكلت عمرك، وأما اقتراب أجلك فلو أستطيع دفع الموت عن أحد دفعته عن نفسي، وعن آل أبي سفيان، وأما ما ذكرت من ســـفهاء قـــريش، فحلماؤها أنزلتك هذه المنزلة، وأما العمل، فاصبر. رويدا يدرك الهيجا حمل.

ولم يعجب هذا الرد ــ بالطبع ــ المغيرة بن شـــعبة، فاســـتأذن معاوية في القدوم عليه فأذن له، فوافاه. فابتدره معاوية قائلا: يا مغيرة. كبرت سنك، واقترب أجلك، ولم يبق هنـــاك شـــئ، وسأســـتبدل بـــك فانصرف.

فلما خرج (المغيرة) من معاوية، رأي أصحابه في وجهه كآبـــة، فسألوه عن الخبر فقص عليهم موقفه، وموقف الخليفة الأمـــوي منـــه، فقالوا له: والآن ماذا تريد أن تصنع؟ فقال: ستعلمون.

ولم ييأس المغيرة لصد معاوية الباب دون إبلاغه سؤله بل دبـــر لقاء آخر.وأتي الخليفة ، فدخل عليه، وقال له: يا أمير المـــؤمنين. إن

---

(٥١) دراسات في الأدب العربي والتاريخ ــ محمد عبدالغني حسن ٢٨٤، ٢٨٥ الدار القومية للطباعة والنشر بالقاهرة .

الإنسان يغدو ويروح، ولست في زمن أبي بكر ولا عمر. فلو أنك نصبت ــ أي عينت ــ لنا إنسانا نصير إليه بعدك، كان ذلك هو الرأي ــ على أني قد دعوت أهل العراق إلي (يزيد).

ولقد أثار المغيرة بهذا الكلام شيئا في نفس معاوية، وهاج رغبة كانت كامنة في صدره. فقال له : "يا أبا محمد. انصرف إلي عملك وأحكم هذا الأمر" أي: الدعوة إلي يزيد ــ ابن أخيك .

وهكذا كانت هذه الحيلة من المغيرة بن شعبة، في ضمان استمرار العمل لنفسه، هي الباعث الذي حمل معاوية علي أخذ البيعة ليزيد، فاستن بذلك سنة وراثة الملك في تاريخ العرب والإسلام.

* * *

وهذا الموقف يدل علي مدي ما كان يتمتع به معاوية من ذكاء وحيلة، في الوصول إلي ما يبغى ويريد، فقد دفع المغيرة إلي الدعوة لابنه يزيد في ولاية العراق، وهو يدرك قوة الدافع لدي المغيرة إلي نجاح الدعوة ــ حتي يضمن استمرار ولايته علي العراق، ثم تظهر الدعوة بعد ذلك في بقية الولايات الأموية، ثم يخرج معاوية بالدعوة إلي المبايعة ليزيد .

* * *

وكان نقل عاصمة الدولة الأموية من المدينة المنورة، إلي دمشق الشام، هو النافذة الكبري للأدب العربي التي أطل منها علي جمال الطبيعة، وآثار العمران والحضارة، والماء العذب الجاري المتدفق في

بردي وغيره من مجاري المياه التي تحرك مشاعر الشعراء وأحاسيسهم للإبداع والتعبير.

وإلي جانب ذلك ـ كانت الحياة الصاخبة بآلات الدفوف والمزهريات التي كانت تنطلق من قصور الخلفاء وسراة القوم، معلنة عن إضاءة صالات هذه القصور بالأنوار، وبكوكبات المغنين والمغنيات، ومجالس الخلفاء، ومعهم الشعراء، يسهرون ويسمرون حتي تعلن أشعة شمس اليوم التالي عن إشراق النهار الجديد، وهنا ينال الشعراء منحهم وعطاياهم، ويأخذ المغنون والعازفون أجورهم، منطلقين إلي منازلهم ودورهم، في انتظار ليل جديد، تنعقد فيه مجالس لهوهم وسمرهم.

ومن أشهر من ظهروا من الشعراء في سماء هذا العصر:

١ - الأخطل ـ شاعر الخليفة ، أو شاعر قصور خلفاء بني أمية.

٢ - جرير، والفرزدق والبعيث : أصحاب شعر النقائض. وسنتناولهم بالبحث والدراسة بعد.

٢ـ الاتجاه السياسى الثانى:

الخوارج: هم جماعة من أصحاب علي بن أبي طالب ـ ﷺ ـ كانوا قد رفضوا قبول التحكيم، الذي أشار به جيش معاوية بمشورة عمرو بن العاص، فلما تكشفت الخديعة، ورفض عمرو بن العاص خلع معاوية عن الخلافة، وسخر من أبي موسي الأشعري، حدث هرج ومرج في صفوف أتباع علي ـ ﷺ ـ وارتفعت أصوات الذين

رفضوا التحكيم سلفا، وقالوا: حذرناك من هذا الأمر وأنه خديعة، ولـم تلتفت لصيحتنا، وانحازوا جانبا، خارجين من معسكر الإمام، ومن هنا جاءت تسميتهم (خوارج) لخروجهم علي الإمام ، وإعـلان عصـيانهم وتمردهم. وأعلنوا كفر الإمام علي، ومروقه من الدين، وقـد هـزمهم الإمام ونكل بهم في موقعة (النهروان)٠

والغريب أن الخوارج كانوا كثرة، وكانوا دعاة للنظام الاستشاري الديمقراطي، وكانوا أقوياء العقيدة، وتكون فصيلتهم ــ أول الأمـر ــ من تميم، ومن جماعة القراء من الجند ومن أبطال القادسـية، وكـان بعضهم يذهب إلي أنهم سموا بالخوارج، أخذا مـن قـول الله تعـالي: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ﴾ (الآية ١٠٠ من سورة النساء)٠

كما أطلق عليهم اسم (الشراة) أي: الذين باعوا أنفسهم لله تعـالي أخذا من قولـه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ﴾ وهذه الآية هي (الآية ٢٠٧ من سورة البقرة)٠

كما سموا بالحرورية. نسبة إلي (حروراء) التي تحصنوا بها بعد خروجهم على علي ٠

وكان تجمعهم أولا في الكوفة، ويحاربون تحت لواء الإمام، حتي حدثت مأساة التحكيم، وخرجوا علي الإمام علي ــ ﷺ ــ فانساحوا في البلاد، وأشاعوا جوا من الرعب والفزع للناس، وعادوا إلي التجمع في

(البصرة) وكانوا كثيري الثورات في أماكن كثيرة، طوال حكم بني أمية.

وكان هؤلاء الخوارج يمتازون بالجرأة والشجاعة والتضحية بكل غال ونفيس للوصول إلي ما يصبون إليه . وكانوا متعصبين للعربية الخالصة، مما جعل أدبهم قويا، وقد تجمع بعضهم وقرروا تخليص المسلمين من أسباب الفرقة والانقسام في الأمة ـ تبعا لهواهم ـ وقر رأيهم علي قتل علي ومعاوية وعمرو.

وفي ليلة التنفيذ، خرج الإمام علي للصلاة، ووقف وراءه رجل يقال له (ابن ملجم) وما إن انحني الإمام للركوع حتي أغمد ابن ملجم سلاحه في ظهر الإمام فخر صريعا، وسالت دماؤه الذكية علي أرض المسجد، تشهد بصدق قول الرسول ـ ﷺ ـ: (تقتل عليا الفئة الظالمة) وهكذا قضي الإمام الشهيد.

أما معاوية فقد تخلف عن الصلاة في تلك الليلة: ونجا من الموت، وكذلك نجا عمرو بن العاص.

* * *

وقد كان لهذا الاتجاه خطباؤه المفوهون، كأبي حمزة الشاري، وقطري بن الفجاءة ، والطرماح بن حكيم، وعمران بن حطان، وإسماعيل بن يسار، وغيرهم كثير.

ومن أشهر فرقهم:

الأزارقة : أتباع نافع بن الأزرق، الذين تمكنوا من إقامة إمـــارة لهـــم عرفت باسمهم: (الأزارقة) في بلاد (الأهـــواز) فـــي إقلـــيم فارس ٠

كما كان منهم:

النجدات: أتباع نجدة بن عامر٠

والأباضية أتباع عبدالله بن أباض ٠

والصفرية: أتباع زياد بن الأصفر . وقد أقام النجدات لهم دولة ثانيـــة في جزيرة العرب في اليمامة والبحرين[٥٢].

وقد ظل الخوارج يسببون القلاقل والاضطرابات للأمويين، حتي تمكن عبدالملك بن مروان من كسر شوكتهم ٠

ومن أبرز شعراء الخوارج :

قطري بن الفجاءة، المقتول عام ٧٩هـــ[٥٣]، يقـــول مصـــورا شجاعة الخوارج وبطولتهم، ومحمسا نفسه علي لقاء الأعـــداء، وعـــدم الخوف من الموت:

لا يركنن أحـــد إلـــي الإحجـــام ∴ يوم الـــوغي متخوفـــا لحمـــام
فلقد أرانـــي للرمـــاح دريئـــة ∴ من عن يميني مرة وأمـــامي[٥٤]

---

(٥٢) الوليد بن عبد الملك ــ د/ ضياء الدين الريس ص١٦ سلسلة أعلام العرب (١٠) المؤسسة المصرية ٠

(٥٣) حلقتا عصري صدر الإسلام وبني أمية د / محمـــد عبـــدالمنعم العربـــي ص٣٥، ٣٦ ٠

حتي خضبت بما تحدر من دمــي .:. أكناف سرجي أو عنان لجــامي

ويقول أيضا في موقف آخر:

أقول لها وقد طــارت شــعاعا .:. من الأبطال ويحك لــن تراعــي

فإنك لــو ســألت بقــاء يــوم .:. علي الأجل الذي لك لم تطــاعي

فصبرا في مجال الموت صبرا .:. فمــا نيــل الخلــود بمســتطاع

ولا ثوب البقــاء بثــوب عــز .:. فيطوي عن أخي الخنع اليراع[٥٥]

سبيل الموت غاية كـل حــي .:. فداعيـــه لأهـــل الأرض داع

ومن لا يعتبط يســأم ويهــرم .:. وتسلمه المنون إلي انقطــاع[٥٦]

وما للمرء خيــر فــي حيــاة .:. إذا ما عد مــن ســقط المتــاع

ومن شعراء الخوارج أيضا (عمران بن حطان) المتــوفي عــام ٨٩هـــ، الذي يقول في (رثاء أبي هلال) أحد الخوارج[٥٧].

لقد زاد الحيــاة إلــي بغضــا .:. وحبا في الخــروج أبــو بــلال

أحاذر أن أموت علي فراشــي .:. وأرجو الموت تحت ذرا العوالي

ولو أني علمــت بــأن مــوتي .:. كمــوت أبــي بــلال لــم أبــال

فمن يك همــه الــدنيا فــإني .:. لهــا والله رب العــرش قــال

* * *

---

(٥٤) الدريئة: ما يتعلم الرمي عليه٠

(٥٥) الخنع: اللين . اليراع: الجبان٠

(٥٦) يعتبط: يموت شابا٠

(٥٧) حلقتا عصري صدر الإسلام وبني أمية د/ محمد عبدالمنعم العربي ص٣٦

وهكذا، تجد كلا الشاعرين، يستهين بالدنيا، ويفرك بحياة الخوف والهوان ، ويفتح ذراعيه مرحبا بالموت في سبيل العوالي، محذرا النفس من كراهية الموت في سبيل ما يؤمن به، ويكره الموت كما يموت البعير، وأن النماذج العظمي للشهداء الأبطال، هي المثل الأسمي لما يترقب من نهايته، فليس خير في حياة التردد، لأن الأعمار موقوتة بأجل محدد، لا مفر منه، ولا حيدة عنه .

فأدب الخوارج إذا، هو أدب الشجاعة والإقدام، وحب الشهادة وفيه قوة الإيمان، وشدة التمسك بالإسلام، والاطمئنان إلي ما أعد الله لأوليائه من النعيم المقيم — وأدبهم أدب ثوار لا يهدأون.

الاتجاه الثالث: (الشيعة) وهم الجماعة التي بقيت مع الإمام علي — ﷺ — وانحازوا إليه، وتشيعوا له يناصرونه، ويدافعون عنه وينشرون في الناس أحقيته في الخلافة، بصفته من بني هاشم، الذين يجب أن تكون الخلافة فيهم لأنهم آل الرسول — ﷺ — الذين هم أحق الناس بخلافته ، وقد ظهروا مبكرين، ويقال إنهم ظهروا أيام عثمان — ﷺ — فلما قتل أسرعوا إلي علي وبايعوه وبالغوا في التعصب له وزعموا أن الرسول — ﷺ — نص علي إمامة علي .

وقد تجمعت الشيعة في الكوفة، وبعض مدن العراق وفارس، حيث انضم إليهم خلق كثير، ناصبوا الأمويين العداء، وحاربوهم في أكثر من موقعة.

وتنقسم الشيعة إلي: زيدية وكيسانية ·

والزيدية: فرقة معتدلة، وتنسب إلي زيد بن علي بـــن الحســـين، الذي خرج علي هشام بن عبدالملك بالكوفة، فقتل وصلب. وهم يـــرون أن الخلافة يجب أن تكون في أولاد علي من فاطمة·

أما الكيسانية: فهم فرقة مغالية في التشيع، وتنسب إلي المختـــار الثقفي، الذي ثار في العراق، وقضي عليه مصعب بن الزبير — وكان ينادي في الناس:

ألا إن الأئمـــة مـــن قـــريش ∴ ولاة الحـــق أربعـــة ســـواء

علـــي والثلاثـــة مـــن بنيـــه ∴ هم الأسباط لـــيس بهـــم خفـــاء

فســـبط ســـبط إيمـــان وبـــر ∴ وســـبط غيبتـــه كـــربلاء

وسبط لا تـــراه العـــين حتـــي ∴ يقـــود الخيـــل يقـــدمها اللـــواء

تغيب لا يـــري عـــنهم زمانـــا ∴ برضوي عنـــده عســـل ومـــاء

وقد كان لكلا الفريقين شعراؤهم وخطباؤهم·

ومن أشهر هؤلاء الشعراء:

الكميت بن زيد الأسدي، الذي تصدي للأمـــويين — وهـــو فـــي الأصل منهم — وأخذ ينادي بأحقية الخلافة في بنـــي هاشـــم، وأنشـــد قصيدته التي يقول فيها:

طربت وما شوقا إلي البيض أطـــرب ∴ ولا لعبا مني وذو الشـــيب يلعـــب

ولم تلهني دار ولا رسم منـــزل ∴ ولم يتطربنـــي بنـــان مخضـــب

ولا السانحات البارحات عشية .·. أمر سليم القرن أم مر أعضب

ولكن إلي أهل الفضائل والنهي .·. وخير بني حواء، والخير يطلب

بني هاشم رهط النبي فإنني .·. بهم ولهم أرضي مرارا وأغضب

* * *

وبعد أن يسجل حبه وتشيعه لآل البيت، ذاكرا أنهم العترة التي يجد في حبهم سعادته وأنهم أثمن وأغلي عنده من كل ملذات الدنيا وثرواتها، نجده يعلن رأيه في حق بني هاشم في الخلافة، وأن الأمويين لا حق لهم فيها، فيقول في قصيدة عينية:

فقل لبني أمية حيث حلوا .·. وإن خفت المهند والقطيعا

أطاع الله من أشبعتموه .·. وأشبع من بجوركم أجيعا

بمرضي السياسة هاشمي .·. يكون حيا لأمته ربيعا

ويؤكد أحقية بني هاشم للخلافة فيقول:

يرون لهم فضلا علي الناس واجبا .·. سفاها، وحق الهاشميين أوجب

ولكن مواريث ابن آمنة الذي .·. به أن شرقي لكم ومغرب

فدي لك موروثا أبي وأبو أبي .·. ونفسي ونفس بعد بالناس أطيب

إلي أن يقول:

فإن هي لم تصلح لحي سواهم .·. فإن ذوي القربي أحق وأقرب

والقصيدة من عيون (الشعر السياسي) ، وتميز بها الكميت في دفاعه عن الهاشميين، وإثبات حقهم في الخلافة، وسلب الأمويين ما حازوه من سلطان الحكم والثروة(٥٨) .

الاتجاه الرابع: (الزبيريون) أتباع: الزبير بن العوام، وظهروا عند موقعة الجمل، حيث وقف الزبير مع عائشة رضي الله عنها، ومع طلحة ضد علي (ﷺ) ، وتأكد عندما امتنع ابن الزبير عن مبايعة يزيد ابن معاوية.

وكان الزبير قد اعتصم بمكة، وأعلن نفسه خليفة عليها، وعلي المدينة المنورة، واستولي علي العراق، وظل حاكما تسع سنوات وولي أخاه مصعبا علي العراق. واستمر ذلك حتي زمن عبدالله بن مروان الذي جرد جيشا هاجم به مصعبا وهزمه وقتله سنة ٧١هـ، ثم دخل الكوفة، واستطاع الحجاج محاصرة مكة، ودخلها، وهزم عبدالله وقتله سنة ٧٣هـ.

وبهذا ، انتهي هذا الاتجاه، وبادت معه أحلام الحجاز في السيطرة والسيادة .

ومن الشعراء الذين شايعوا هذا الاتجاه وناصروه: عبيدالله بن قيس الرقيات ، ومصعب وزفر بن الحارث الكلابي، والضحاك بن قيس، وإسماعيل بن يسار النسائي، وأبو وجزة السلمي، وغيرهم.

قال عبيد الله بن قيس الرقيات(٥٩):

---

(٥٨) راجع: تاريخ الطبري ٢/ ١٨٧ .

١-حبذا العيش حين قومي جميع .·. لـم تفـرق أمورهـا الأهـواء

٢-قبل أن تطمع القبائـل فـي ملـك قـريش وتشـمت الأعـداء

٣-أيها المشتهي فناء قـريش .·. بيـد الله عمرهـا والفنـاء

٤-إن تودع من البلاد قـريش .·. لا تكـن بعـدهم لحـي بقـاء

ويمضي فيرد علي الخوارج وأشباههم ممن كانوا يرون أن تنزع الخلافة من قريش وترد إلي العرب، بل إلي المسلمين جميعـا فيقـول (مادحا) مصعب بن الزبير ومعرضا بأعدائه:[٦٠]

١١-إنما مصعب شهاب من اللـ م ـه تجلت عن وجهه الظلمـاء

١٢-ملكه ملك قوة ليس فيـه .·. جبـروت، ولا بـه كبريـاء

١٣-يتقي الله في الأمور وقـد أفـلح مـن كـان همـه الاتقـاء

ثم يقول مفتخرا ، ومعتزا بالبيت الحرام:

١٨-ليس لله حرمة مثل بيـت .·. نحـن حجابـه عليـه المـلاء

١٩-خصـه الله بالكرامـة فالبـا دون والعـاكفون فيـه سـواء

"فقريش هي عمود الخلافة[٦١] ولو أنها زالت عنها السقط ركنهـا سقوطا لا يرتفع بعده"، وبهذا يري أن ابن الزبيـر هـو الخليفـة دون غيره٠

---

(٥٩) ديوان عبيد الله بن قيس ـ ٨٨ ط دار صادر ـ بيروت ٠
(٦٠) تاريخ الأدب العربي ـ العصر الإسلامي ـ د/ شوقي ضيف٠
(٦١) دراسات في الأدب السياسي ٩٧ د/ السيد محمد ديب ١٩٩٧م٠

ثم يبين اتجاهه السياسي، وكراهيته لبني أميــة، فيقــول معلنــا كراهيته لبني أمية، وتألمه علي شهداء الزبيريين:

٢٢-أنا عنكم بني أميــة مــزرو ر، وأنـــتم فـــي نفســـي الأعـــداء

٢٣-إن قتلي بالطف قد أوجعنني ∴ كان منكم ــ لئن قتلتم ــ شــفاء

* * *

وهذه الأبيات توضح لنا مدي ما كان ابن قيس متأثرا به سياســيا فقد كان[٦٢] "في مقدمة الذين تعصبوا للفكر السياسي الذي يــؤمن بــه ويسعي إليه الزبيريون".

وقد لجأ ابن قيس إلي الغزل، متخذا إياه وسيلة إلي "التعبيــر[٦٣] عن اتجاهه السياسي، وإلى المدح فمدح ابني الزبير ولازم مصــعبا، ومدح عبدالملك وعبدالعزيز"، ومما قاله فــي مــدح عبــدالعزيز بــن مروان[٦٤]:

أثن علي الطيب ابن ليلــي إذا ∴ أثنيت في دينــه وفــي حسبــه

من يصدق الوعد والقتال ويخــشى الله فــي حلمــه وفــي غضبــه

ومن تفيض يداه الندي ومــن ∴ ينتهــب الحمــد عنــد منتهبــه

ولابن قيس في الغزل صولات لا تقل عن صولاته السياسية، وقد شبب ببعض نساء حكام بني أمية مغيظا لهم، واتخذ من الغزل وســيلة

---

(٦٢) تاريخ الأدب العربي ــ العصر الإسلامي ــ د/ شوقي ضيف.
(٦٣) المرجع السابق ١٠٢ .
(٦٤) الديوان ٢٠١ .

للتعبير – أيضا – عن اتجاهه السياسي الزبيري، يقول في (عائشة) وقد بعث به مصعب ليترضاها(٦٥):

جنية برزت لتقتلني ∴ مطلية الأصداغ بالمسك
عجبا لمثلك لا تكون له ∴ خرج العراق ومنبر الملك
ترمي لتقتلنا بأسهمها ∴ ونزنها بالحلم والنسك

فهو في مقدمة الشعراء الغزلين ·

وله مدائح كثيرة، وخاصة في الأمويين الذين مال إليهم في أقربات حياته، فأخذ يتقرب إليهم·

وموسيقي شعره نقية كلها صفاء وعذوبة، وهو من أكثر الشعراء المكيين الذين اعتنوا بالأوزان القصيرة والمجزوءة، لتنسجم مع فن الغناء الذي كان سائدا في مكة والمدينة . يقول:

رقية تيمت قلبي ∴ فوا كبدي من الحب
وقالوا أداؤه طب ∴ ألا بل حبها طبي

فهو إلي جانب حدته ، نراه في غزله، رقيقا إلي أقصي درجات الرقة، وألفاظه عذبة سهلة كأنها السلسبيل العذب الجاري في يسر ومرونة·

---

(٦٥) الأغاني ١١/ ١٧٦ (دار الكتب)، الديوان ١٤١ ·
نزنها : ننسبها·

الاتجاه الخامس: (المهالبة) وهم أنصار المهلب بن أبي صفرة وهم أسرة عربية من الأزد، عرفوا بالكرم والشجاعة، وكان كبيـــرهم مـــن رجال بني أمية، الذين حاربوا الخوارج من بني الأزرق وولاه الحجاج خراسان، وقد توفي عام ثلاثة وثمانين من الهجرة٠

ومنهم: يزيد بن المهلب والمغيرة بن المهلب، ومنهم مخلـــد بـــن يزيد بن المهلب وحبيب بن المهلب. وكان هذا البيـــت مـــن اليمنيـــين، ولكن الأمويين قضوا عليهم، وآذوهم بالسجن والقتل ٠

* * *

هذه الاتجاهات السياسية، كان لها أثرها الأدبي، بما نشأ بينها من صراع وقتال، وأفرزت لفيفا من الشعراء لا تزال آثارهم باقية تستثير الباحثين بما تحوي من كنوز، تسجل تاريخ حقبة من أبرز عصـــورنا الأدبية ٠

* * *

وقد برزت في أدب عصر بني أمية ظاهرتان، توضحان أهميـــة الآثار الناتجة عن هذا النصر، هما:

١ - النقائض ٢ - الأدب السياسي٠

١- **النقائض**: ويري البعض أن يخصها بالشعر، فيطلـق عليهـا: شعر النقائض وهي جمع نقيضة: وهي ما ينقض به، أي: ما يهدم بـه شاعر ما بناه آخر، وكان الشعراء المتناقضـون يتربصـون بعضـهم ببعض.

وقد تبادل شعراء العصر الأموي في نقائضهم السـباب والشـتم علي نحو لم يسبق بين الشعراء المتناقضين.

وأشهر شعراء النقائض في العصر الأموي: (الفـرزدق) وهـو أهجاهم، ولا يقصر هجاءه علي ذم القبائل من الناحية الاجتماعية، بـل الواقع أن الجانب السياسي كان هو الدافع الأكثر إثارة لـه إلـي هـذه النقائض.

وقد ندم علي كان من الهجو في أخريات حياته.

وكان منهم: (الأخطل) وكان نصرانيا، ويمثل الجانب الرسـمي؛ لأنه كان شاعر الخليفة، أو: شاعر القصر، كما كان يحـب أن يطلـق عليه، ولعله كان يري في هذا اللقب ما يدعم شخصيته، لإحساسه بأنـه أقل الشعراء مكانة لنصرانيته، فكان هتم بهذه الكنية، ويعتز بها، ويتيه فخرا بها لأنها تقدمه علي غيره من الشعراء.

وكان ثالثهم: (الفرزدق) وكان أعفهم لسانا في نقائضهم وأنصعهم بيانا، وأرقهم عاطفة، وأحسنهم تصويرا.

ودخل بينهم عدد كبير من الشعراء المعروفين، وقد بلغ عـددهم عند الأصفهاني (في كتابه الأغاني) تسعة عشر شاعرا منهم: البعيث. الذي صرح جرير باسمه في نقائضه٠

وكان شعر النقائض من أكثر ألوان الشعر انتشارا آنئذ، واشـتغل به الناس ، وتناشدونه، متلهين به عن الدولة وشئونها، وكيفية تصريف أمورها، ولعل هذا هو ما سعي إليه خلفاء بني أمية، في تشجيع هـذا الاتجاه ، وما كان ينميه من إثارة للعصبيات القبلية، وما يرمي إليه من إذكاء الروح العنصرية المقيتة ٠

وقد تعصب وتحزب لكل واحد من شعراء النقائض جمهور كبير من الناس، وأخذت هذه الجماهير تسـهم فـي إذكـاء نـار العـداوة، بانحيازها إلي فكر ورأي شاعرها، وإذاعة ما يـدعو إليـه، وجمـع الأنصار له٠

وقد أدي التنافس بين شعراء النقائض، إلي ظهور موهبة فنية فذة بين هؤلاء الشعراء، وكان للمهارة الفنية دورها الفاعـل فـي السـبق والتقدم٠

وقد لعبت **ثقافة كل شاعر**، ومعرفته بتـاريخ القبائـل الأخـري ومثالبهم، وما يعتري كل قبيلة من نقص خلقي أو عنصري أو نفسـي ومقدرته علي استغلال مهارته في التفنن والتصـرف فـي اسـتخراج مختلف الصور والسخرية من الخصم٠

ويتمثل **الجانب الفني** بخاصة في هذه النقائض: في أن يلجأ الشاعر إلي كل من الجانبين المادي والجانب المعنوي لنقض (هدم) ما جاء به الشاعر الأول، ففي الجانب المادي، يلجأ الشاعر إلي الوزن الشعري (البحر) الذي قال الشاعر الأول عليه أبياته، فيأتي الناقض بشعره علي البحر نفسه، كما يأتي بقافيته، وبالأخص (حرف الروي) علي ما أتي به الشاعر الأول، أي أن الشاعرين يجب أن يتفقا في الوزن والقافية.

أما في الجانب المعنوي: فيلجأ الشاعر الناقض إلي المعاني والأفكار التي جاء بها الشاعر الأول فيهدمها، متخذا من مواضع فخره، مواطن لهدم هذا الفخر، والسخرية منه، والاستهزاء به، فإذا فخر الأول بأصله، ونسبه، نزل الشاعر الناقض بهذا الأصل إلي أسفل سافلين، وإذا اتخذ من نسبه سببا للاعتزاز والفخر أطاح بهذا النسب وعابه، وجعله مصدرا للسب والعيب.

"وليست النقائض هجاء خالصا، فهي خليط من فنون الشعر، التي عرفها الأدب العربي في ذلك الحين .. فيها فخر .. وفيها مديح .. وفيها نسيب .. وفيها وصف للبادية ونباتاتها وحيواناتها.." [٦٦].

* * *

(٦٦) دراسات في الأدب العربي علي مر العصور د/ عمر الطيب الساسي ص٤٠ دار الشروق ـ جدة.

والنقائض فن قديم، ظهر منذ العصر الجاهلي، وقد كان في بدء ظهوره نثرا في بعض المشاكل الاجتماعية، ثم تحول إلي الشعر وبدأت — في الغالب — علي بحر الرجز، وكان من الأوزان التي وجدت في الجاهلية، وقطع عليها بعض الكلام، وكان يمثل فنا شعبيا قليل النصوص، واستعمل في النقائض ساذجا.

وقد قامت النقائض — من حيث المعاني — أول ما قامت علي الركن الأساسي فيها، وهو نقض المعاني، دون التزام بحر أو قافية فكانت ردودا أو حوارا جدليا، ثم لما كثرت الأيام وحميت العصبيات تقدم الشعراء، وظهر الفحول، واستمر التحدي بينهم، وتعاظمت النعرات بينهم، أخذت النقائض تطول، وتتكامل عناصرها، وتخضع للتحدي الموضوعي والمعنوي والموسيقي، حتي تمت لها قواعدها المعروفة وإن لم تبلغ من الطول والقوة والدقة والسيرورة والعناية والتأثير ما بلغت أيام الأمويين.

فالأصول أو المقومات التي قامت عليها النقائض إذن، هي جاهلية، قامت علي تناول الأحساب والأنساب والأصول الاجتماعية المقررة، وأنشئت في ظل المعارك والأيام التي كانت تدور بينهم وحميت بنار العصبيات، واعترفت بالظلم والعدوان، والقوة الغاشمة والمفاخرة بالأحساب والأنساب.

فلما جاء الإسلام، وجد (فن النقائض) كامل الأداة، مكتمل العناصر الفنية، استمد اصوله — كما قلنا — من النقائض الجاهلية،

التي كانت صورة صادقة لعصرها، من حيث: الموضوعات والمعاني والأساليب والغايات.

وقد اعتمد الشعراء الإسلاميون علي هذه الأصول الفنية لإرساء النهضة الجديدة، القائمة علي نصرة دين الله تعالي، والذود عن رسول الإسلام (محمد) ﷺ.

فكانت النقائض – يومئذ – امتدادا للنقائض الجاهلية، من حيث (أصولها الفنية) وإن طرأت عليها سمات جديدة بتأثير الدعوة الإسلامية، وكان بعض الشعراء المسلمين كحسان بن ثابت، وعبدالله بن رواحة من شعراء الجاهلية، فنهض بهذا الفن في عصر البعثة المحمدية شعراء مخضرمون أدركوا العصرين الجاهلي والإسلامي سواء في ذلك شعراء مكة والمدينة من العرب واليهود رجالا ونساء.

وقد دخل هذه النقائض الإسلامية تجديد في الأغراض والمعاني.

١ – فهي الآن تخدم دينا جديدا، يجب دعمه بالدعوة إليه، والدفاع عنه.

٢ – وهي تتناول معاني دينية بعيدة عن السب والشتم والخوض في الأعراض.

٣ – وهي تسلك سبيلها عبر ألفاظ، اضطربت في بدء أمرها فكانت مضطربة غير مستوية، سواء ذلك عند الشاعر الواحد، أو عند شعراء المدرستين، فمنها الضعيفة المهلهلة، ومنها الجزلة القوية، ومنها الوسط العادي.

وترجع أسباب ذلك إلي:

١ - ضعف الشاعرية القرشية وحداثتها ٠
٢ - ارتجال الشعر أمام الحوادث الطارئة٠
٣ - هرم بعض الشعراء، كحسان الذي يقال إنه تجاوز الستين٠
٤ - اقتحامهم جميعا مجالا جديدا، تعوزه مرانة طويلة٠
٥ - الغاية، فالنقائض الإسلامية كانت غايتها في سبيل الإسلام، فهي غاية (دين) ينبغي نشره والدفاع عنه، و(دولة) يلزم قيامها والزود عنها٠

خصائص النقائض الإسلامية:

١ - النقائض الإسلامية الأولي تميزت بقصر العمر، لأنها عايشت ضرورة وقتية، استدعتها المهاجاة بين قريش والمدينة في ظل الإسلام، فما تصالحتا، ودخل العرب الدين الجديد، وأصبحوا أمة واحدة لم يبق ثمت مجال للمناقضة، فسكنت، اللهم إلا ما كان أثناء الغزوات أو الهجرة.

وأول ما يقابلنا من هذه المناقضات، ما قاله ضرار بن الخطاب، ورد عليه فيهما حسان بن ثابت ــ ﷺ ــ يقول ابن إسحق(٦٧): فكان أول شعر قيل في الهجرة، بيتين قالهما ضرار بن الخطاب بن مرداس، أخو بني محارب بن فهر:

---

(٦٧) النقائض في عهد البعثة المحمدية د/ حسن أحمد الكبير ١٦، ١٧، ١٨ ، م الشباب الحر ــ القاهرة ١٩٨٤م، وانظر: الاكتفاء في مغازي الرسول والثلاثة الخلفاء ، سيرة النبي ٢/ ٣٠٨ ٠

تداركت سعدا عنــوة فأخذتــه .:. وكان شفاء لو تــداركت منــذرا
ولو نلته طلت هنــاك جراحــه .:. وكان حريا أن يهــان ويهــدرا

فرد حسان بن ثابت على ضرار ــ وهــو أول شــعر لــه (أي حسان) في الإسلام:

لست إلي سعد، ولا المرء منذر .:. إذا ما مطايا القوم أصبحن ضمرا
فلولا أبو وهب لمرت قصــائد .:. علي شرف البرقاء يهوين حسرا
أتفخــر بالكتــان لمــا لبســته .:. وقد تلبس الأنباط ريطا مقصــرا
فلا تك (كالوسنان) يحلم أنــه .:. بقرية كسري، أو بقرية قيصــرا
ولا تك (كالثكلي)، وكانت بمعزل .:. عن الثكل لو كان الفؤاد تفكــرا
ولا تك (كالشاة) التي كان حتفها .:. بحفر ذراعيها فلم ترض محفرا
ولا تك (كالعاوي) فأقبل نحــره .:. ولم يخشه سهما من النبل مضمرا
فإنا ومن يهدي القصائد نحونا .:. كمستبضع تمرا إلي أرض خيبرا

ففي بيتي ضرار، الممتلئ قلبه حقداو كراهية ــ في ذلك الوقــت ــ لمحمد ومن والاه، يوجه لومه إلي جبير بن مطعم، والحــارث بــن حرب، اللذين خلصا سعد بن عبادة من أيدي قريش، قائلا لهما: كيــف يحدث ذلك منكما؟ وكان المفروض أن يكون سعيكما للقبض علي رفيقه المنذر ــ الذي فر من أيدي القوم ــ والعمل علي اللحاق بــه، حتــي ننزل به أشد العقاب، ونذيقه الهوان. بل نزهق روحه، ونريــق دمــه جزاء جرأته، وما قام به من تحد لمشاعر قريش، وخروج علي رأيهم في محمد ورسالته ، وقد رد حسان ــ ﷺ ــ من بحر الطويل والقافية

والروي ، مبطلا ما ذهب إليه ضرار، ناقضا لأفكاره ومعانيه، لكن بعبارات مهذبة، وأسلوب راق، ولم يسبه أو يشتمه، بل إنه لجأ إلي رفض تشبهه بصور مذمومة، في أسلوب تهكمي ساخر.

٢ - ومن خواص النقائض الإسلامية:

أن هذه النقائض لم تشتمل علي فحش وجرح للأعراض، وانتهاك للحرمات.

٣ - لم نجد هذه النقائض (الاجتماعية) إلا نادرا:

وفي حضرة الرسول ـ ﷺ ـ [٦٨] أتي وفد تميم سنة الوفود، بعد فتح مكة، فيهم عطارد بن حاجب بن زرارة وقيس بن عاصم، وقيس بن الحارث، ونعيم بن زيد، والأقرع بن حابس، جاء هذا الوفد ، ونادوا الرسول أن يخرج إليهم، فخرج ﷺ ، فقالوا يا محمد ـ جئنا لنفاخرك فأذن لشاعرنا وخطيبنا، قال: أذنت لخطيبكم فليقل. فقام عطارد بن حاجب، فقال خطبة أشاد فيها بقومه، ثم جلس . فقال الرسول ﷺ لثابت ابن قيس: قم فأجب الرجل في خطبته. فقام وقال خطبة أشاد فيها بالرسول والمسلمين.

ثم قام الزبرقان بن بدر التميمي، فقال:

نحن الكرام فلا حي يعادلنا ∴ منا الملوك، وفينا يقسم الربع
وكم قسرنا من الأحياء كلهم ∴ عند النهاب ، وفضل العز يتبع

---

(٦٨) ملامح الأدب الإسلامي د/ عبدالرحمن عبدالحميد ص٧٦ ، ٧٧ .

ونحن نطعم عند القحط مطعمنا ∴ من الشواء،إذا لم يؤنس القزع[٦٩]

* * *

فلما فرغ الزبرقان بن بدر من قوله ، قال الرسول ﷺ لحسان: قم يا حسان فأجب الرجل، فقال حسان[٧٠]:

إن الذوائب من فهر وإخــوتهم ∴ قد بينــوا ســنة للنـــاس تتبــع

يرضي بهاكل من كانت سريرته ∴ تقوي الإله،وبالأمر الذي شرعوا

قوم إذا حاربوا ضروا عــدوهم ∴ أوحاولوا النفع من أشباعهم نفعوا

سجية تلك فيهم غيــر محدثــة ∴ إن الخلائق ــ فاعلم ــ شرها البدع

لا يرقع الناس ما أوهت أكفهم ∴ عند الدفاع ولا يوهون ما رقعوا

إلي أن يقول:

أكرم بقوم رسول الله شــيعتهم ∴ إذا تفرقــت الأهــواء والشــيع

أهدي لهم مدحي قلب يــؤازره ∴ فيما يحب لسان حائــك صــنع

فإنهم أفضــل الأحيــاء كلهــم ∴ إن جد بالناس جد القول أو سمعوا

* * *

فقصيدة حسان تمثل ــ أصــدق تمثيــل وأروعــه ــ النقــائض الإسلامية، والغرض الذي تنشأ من أجله.

---

(٦٩) **الربع**: ربع الغنيمة . **النهاب**: جمع نهب: الغنيمة. **القزع**: الغيم .
(٧٠) ديوان حسان (٢٤٨) ط التجارية .

فحسان – ﷺ – يرد علي الزبرقان بن بدر ، وينقض فخره بقومه فخرا جاهليا يعتمد علي ذكر العز والجاه والقوة المادية المتمثلة في العدد والكثرة، والعصبية، فافتخر حسان بالرسول والإسلام وأخوة المسلمين، من مهاجرين وأنصار ومنهج الإسلام، الذي ينضوي تحت لوائه المسلمون جميعهم، ثم أشاد بالقوة الإسلامية المتمثلة في الخبرة القتالية للمسلمين، وأثرهم في أعدائهم، ثم أشاد بمعاهدتهم للرسول – ﷺ – ثم ختم بمدح المصطفي – ﷺ – وأصحابه.

وقد انتصر حسان بقصيدته، كما انتصر خطيب المسلمين بخطبته، مما أفحم وفد اليمن، ونري تأثر الأديبين بالقرآن الكريم، ويسر ألفاظه، وروعة بيانه، وفصاحة كلماته، وتلاحم النسج فيه.

* * *

ثم إذا انتقلنا إلي العصر الأموي، فإننا سنجد النقائض الأموية: سياسية واقتصادية واجتماعية وشخصية وغيرها.

فمن حيث السياسة: كانت مرتبطة بالمقاييس الدينية والخلقية، لا تنفصل عنها، وكانت السياسة نفسها ظاهرة دينية، وعنصرا سليما من عنصرية الروحي والزمني .

وفي العهد الأموي انفصلت السياسة عن الدين بوجه عام، وصار الأمر ملكا عضوضا، يهدف إلي غرض سياسي عملي يجب أن يتحقق، وإن كان فيه جور علي الدين، ومروق من نظامه، وأصبح

الدين، إما: وسيلة سياسية صالحة مقررة كالقصص، وإما أن يلتئم معها في بعض المواقف٠

ذلك؛ لأن المقاييس السياسية سيطرت علي ملوك بني أمية، فقد كانوا أصحاب عرس دنيوي، كل همهم حفظ الملك في بيتهم، وإخضاع الرعية لسلطانهم ٠

ولم تكن الحياة الاجتماعية في العصر الأموي دون الحياة السياسية أثرا في تقويم النقائض، وتكوين عناصرها، وتكوين تياراتها٠

وقد كان للأمويين ارتباط قوي بتاريخهم الجاهلي، واعتزاز هم به وما كان لهم فيه من جاه قديم، وسلطان عزيز. وقد انعكس هذا علي شعراء النقائض، مما يعطينا انطباعا بما ترتكز عليه شخصية كل منهم٠

فالفرزدق: أشدهم جاهلية ومفاخرة ٠

وجرير: أقبحهم سفاهة، وأحسنهم إسلاما٠

والأخطل: أحرص علي نصرانيته وتغلبيته٠

أما ذو الرمة: فقد لزم البادية يصفها ٠

وقد كان للنقائض أثر كبير لدي مؤرخي الأدب والنقاد فعملوا علي جمعها وطبعها ودراستها، فقد:

١ - اهتم كتاب الأدب بتلك المساجلات الأدبية، واهتم الباحثون والدارسون بجمع هذه الآثار الأدبية، ودونوها بين العلوم والمعارف٠

٢ - **جمع أبوعبيدة معمر بن المثنى** (م٢١٠هـ) نقائض جرير والفرزدق، وشرحها في أوائل القرن الثالث الهجري.

٣ - تلاه **أبوتمام** (م٢٣٢هـ) فجمع نقائض جرير مع الأخطل، وبذلك أصبحت هذه المجاميع – منذ تدوينها – مادة معدة للقارئ، تغري بالاطلاع والدراسة؛ بل وتشحذ فكره لما احتوت عليه من مطارحات ومساجلات تشد النفس، وتسبي العقل. وشغلت النقائض المستشرقين الأجانب، فقد:

٤ - نشر المستشرق (أنتوني آشلي بيفان) نقائض جرير والفرزدق عام ١٩٠٥ .

٥ - ونشر مستشرق آخر هو (الأب أنطون صالحاني اليسوعي نقائض جرير والأخطل عام ١٩٢٢ .

٦ - وفي العصر الحديث ألف الدكتور/ محمد عبدالعزيز الكفراوي كتابه: (جرير ونقائضه مع شعراء عصره) سنة ١٩٥٨م.

٧ - وكان كتاب (تاريخ النقائض في الشعر العربي) للدكتور/ أحمد الشايب، أفضل البحوث في تاريخ النقائض، حيث حظيت نقائض العصر الأموي منه بالتحليل والدراسة الفنية المتأنية البصيرة وعرض – لأول مرة – لبعض نصوص العصرين الجاهلي

والإسلامي وعرف ببعض جوانب النقائض في هذين العصـــرين وإن كان ذلك في وجازة شديدة ونظرة عابرة"(٧١).

هذه النقائض الشعرية التي أصبحت تقوم علي أسس فنيـــة ثابتـــة يجد فيها الباحثون المدققون ضالتهم، في التعرف علي الحقب الأدبيـــة الملأي بالنشاط الفكري والاجتمـــاعي، والتصـــوير الصـــادق للحيـــاة العربية، وما فيها من صراع بين أطراف هذه الحياة.

* * *

والنقائض تخالف المنافرة والمعارضة:

أ - فالنقـائض: تقوم اساسا علي (وحدة الموضوع)، ثم إن الشاعر الناقض يلتزم الوزن والقافية والروي، كما يقوم الشاعر الناقض فيهدم ما أتي به الشاعر الأول من فخر، فيفسده، ويحوله إلي مصدر هجـــو وسخرية، أو يعمد إلي ما أتي به الشاعر الأول من هجو، فيرده عليـــه ويبطله بالرد والإنكار، فالنقائض إذن : فن شعري خاص له شـــرائطه من حيث (اتحاد) الوزن والقافية، وتقابل المعاني وطرق نقضها، بحيث يقف الشاعر من خصمه موقف المحادة والملاحاة، حتي يفسد عيه مـــا جاء به من معان، ويظفر به في باب الجدل والمفاخرة والمهاجاة، وقد أسهمت الحياة الأموية بما حوت من عوامل سياسية واجتماعية وأدبيـــة في بعث النقائض وقوتها، وأكسبتها سيرورة.

---

(٧١) النقائض في عهد البعثة المحمدية (المقدمة) د/ حسن الكبيـــر. م الشـــباب الحر بالقاهرة ١٩٨٤م.

ب- أما المنافرة، فتقوم علي:

١ - **التحكيم:** حيث يعرض كل شاعر ما يريد به أن يثبت أنه الأفضل، ثم يقوم الحكم بإصدار حكمه.

٢ - عدم نقض أو هدم ما جاء به الشاعر الآخر .

٣ - عدم اشتراط الالتزام بالوزن أو القافية.

٤ - مجيء الشعر علي الفخر، ومحاولة الاستئثار به دون الآخر .

جـ- والمعارضة أن:

١ - يعمد الشاعر فيها علي السير فيما جاء به الشاعر الأول من أغراض وأفكار .

٢ - تتعدد الأغراض في المعارضة، تبعا للغرض الذي ساقه الشاعر الأول — من وصف أو فخر أو مدح .. الخ .

* * *

والنقائض في العصر الأموي تتميز عن نقائضه عصر البعثة بما يلي(٧٢):

أولا: كانت أغزر فنا وموضوعا عن سابقتها .

ثانيا: تعددت النوازع والأغراض التي دفعت الشعراء إلي النقائض.

---

(٧٢) نصوص أدبية من عصر صدر الإسلام وبني أمية د/ محمد محمدين الشكوم، ود/ محمد السيد سلامة ص٢٨١ ط٢٠٠١م.

ثالثا: تخطت النقائض في هذا العصر المفهوم الشخصي والقبلي إلي استلهام الواقع الاجتماعي والبيئي.

رابعا: التأييد المعنوي والمادي الذي كان يلقاه شعراء النقائض علي المستوي الرسمي، والمتمثل في الخليفة أو الوالي، وعلي المستوي الشعبي والمتجسد في جماهير العامة والمتذوقين لفن الشعر.

* * *

والآن، هذه بعض النماذج، لأطراف هذه المعركة، التي صال فيها وجال عباقرة الشعراء في عصر بني أمية، ولعل أشهرها تلك المهاجاة التي دارت بين الفارسين العملاقين: جرير والفرزدق، والتي تناولتها كتب الأدب العربي، بالدراسة والتحليل.

يقول الفرزدق مفتخرا[٧٣]:

١-إن الذي سمك السماء بني لنا ∴ بيتا دعائمه أعز وأطول

٢-بيتا بناه لنا المليك وما بني ∴ حكم السماء فإنه لا ينقل

٣-بيتا زرارة محتب بفنائه ∴ ومجاشع وأبوالفوارس نهشل

٤-يلجون بيت مجاشع وإذا احتبوا ∴ برزوا كأنهم الجبال المثل

٥-لا يحتبي بفناء بيتك مثلهم ∴ أبدا إذا عد الفعال الأفضل

٦-ضربت عليك العنكبوت بنسجها ∴ وقضي عليك به الكتاب المنزل

٧-أين الذين بهم تسامي دارما؟ ∴ أم من إلي سلفي طهية تجعل

---

(٧٣) ديوان الفرزدق ٢/ ٣١٨.

٨-يمشون في حلق الحديد كما مشت ∴ جرب الجمال بها الكحيل المشـــعل

وكما نري ـــ فإن جريرا ـــ في هذه الأبيات يفتخر بأصالة قبيلته وعراقتها، وأن الله تعالي رفع شأنها بين بقية القبائل، كما رفع السـماء علي ثابت الدعائم، وقوي البنيان، وأن بيته القوي المتين، يجتمع فـي فنائه أجداده وآباؤه محتبين، أي جالسين جلسة الاحتباء٠ وهذا البيـت شامخ، ثابت الأركان، متين، راسخ، لا يتحلحل ولا ينقل؛ لأنـه مـن صنع الله تعالي، ويفتخر بأجداده وآبائه الموجودين في بيـت مجاشـع وهم يزينون مجلسهم، وتظهر عظمـتهم، بارتفـاع هامـاتهم، وعلـو قاماتهم، وضخامتهم، وكأنهم الجبال رفعة وشموخا، ثم ينتقص من قدر جرير وآله، فليس لديه من يفتخر بهم مثل آل الفرزدق، ويصـل بـه الهجو أن جعل جريرا يعيش أقذر حياة، وأن بيته قد ركبه العنكبـوت، وهذا قدره المحتوم الذي قدره الله عليه، وأنه (أي جرير) ليس لديه من الآل من يباهي بهم ويفتخر٠

والقصيدة تجاوز الستة والعشرين بيتا، أتي فيها الفرزدق بكل ما يشين جريرا، ويزري به، ويفضل نفسه علي جرير نسبا وحسبا، ولما علم جرير بهجاء الفرزدق، انبري له، ينقض ما قاله وينتصف لنفسـه، فأنشد نقيضته التي بدأها بقوله[٧٤]:

لمن الديار كأنهـا لـم تحلـل ∴ بين الكناس وبين طلح الأعزل؟

---

(٧٤) ديوان جرير ٢/ ٩٤٠ ـــ القصيدة رقم ٣٣ ، وانظـر النقـائض ص٢١١ ت.د/نعمان محمد أمين ـــ دار المعارف مصر٠

والتي جاء فيها:

١٠-أعددت للشعراء سما ناقعا ∴ فسـقيت آخـرهم بكـأس الأول

١١-لما وضعت علي الفرزدق ميسمي ∴ وضغا البعيث، جدعت أنـف الأخطـل

١٢-أخزي الذي سمك السماء مجاشعا ∴ وبني بناءك فـي الحضـيض الأسـفل

١٣-بيتا يحمم قيـنكم بفنائـه ∴ دنسـا مقاعـده، خبيث المـدخل

١٤-ولقد بنيت أخس بيت يبتني ∴ فهدمت بيـتكم، بمثلـي يـذبل

١٥-إني بني لي في المكارم أولي ∴ ونفخت كيرك في الزمـان الأول

١٦-أعيتك مأثرة القيون مجاشع ∴ فانظر لعلك تدعي مـن نهشـل

١٩-إني انصببت من السماء عليكم ∴ حتي اختطفتك يا فرزدق من عـل

والقصيدة في اثنين وستين بيتا، فاقت ضعف قصـيدة الفـرزدق وأتي فيها جرير بنقيض ما قاله الفرزدق، وطوف في أرجائها مفتخـرا بأصوله، وأنهم أعرق مجدا من الفرزدق، ثم جعل بناء زرارة ونهشـل ضعيفا واهيا، انهدم وسقط تحت أقدام جرير، كما يذهب الغثـاء أمـام سيل القوة، ولم ينس جرير أن يعطي للأخطل والبعيـث حقهمـا مـن التحقير وتتجلي شاعرية جرير في أنه كان أشد عنفا، وأكثـر إيلامـا، وأقوي اعتدادا بالنفس ، وكان جرير(٧٥) ذا شاعرية لا تباري، وكـان بعضهم يرفعه علي شعراء العربية جميعا لخصائص منها:

١ - كان أكثرهم فنون شعر ٠ ٢ - أسهلهم ألفاظا ٠

٣ - أقلهم تكلفا، وأرقهم نسيبا ٤ - كان دينا عفيفا ٠

---

(٧٥) نصوص أدبية من عصر صدر الإسلام وبني أمية ٢٨٧ ٠

ولقد تهاجي الأخطل وجرير، رغم أن الأخطل فضله علي الفرزدق، ووصف جريرا بأنه (حية ذكر) حيث قال[٧٦]:

إني قضيت قضاء غير ذي حنف ∴ لما سمعت، ولما جاءني الخبر

إن الفرزدق قد شالت عمامته ∴ وعضه حية من قومه ذكر

لكن قوم الفرزدق أتوا الأخطل ، وسألوه أن يقف إلي جانب الفرزدق، فأجاب الأخطل بقصيدته:

أجرير إنك والذي تسمو له ∴ ....

فتصدي له جرير، وراح يقذفه بالحمم:

أتغلب ما حكم الأخيطل إذ قضي ∴ بعدل، ولا بيع الأخيطل رابح

واستطارا فى التهاجي، واضطرمت نار العداوة بينهما، حتي إن جريرا هجا الأخطل بعد موته، وقال: (أما الفرزدق، فتكلف مني ما لا يطيق، وأما الأخطل فأشدنا اجتراء، وأرمانا للقريض، وأما أنا فمدينة الشعر)٠

وكان جرير – إلي جانب مقدرته في الهجاء – كثير المدح لخلفاء بني أمية، وكان يجيد الوصف – أيضا – قال يصف ويمدح عبدالملك بأنه ركن الدين، وحصنه الحصين والمطبق لأحكام الشرع ولولاه ما اجتمع المسلمون في المساجد في صلاة الجمعة، ثم يصفه

---

(٧٦) أمراء الشعراء – السيد فرج ص١٦٣ ٠

بأنه أمين الله وخليفته في أرضه، والحفيظ علي نافلته وفرضه وأنه المبارك يهدي به الله عباده[٧٧]:

لولا الخليفة والقرآن يقرؤه .·. ما قام للناس أحكام ولا جمع

أنت الأمين · أمين الله لا سرف .·. فيما وليت ولا هيابة ورع

وفي سليمان بن عبدالملك قال:

الله أعطاكم من علمه بكم .·. حكما، وما بعد حكم الله عتب

أنت الخليفة للرحمن تعرفه .·. أهل الزبور وفي التوراة كتب

* * *

لقد كانت النقائض ــ وهي فن أدبي ــ سلاحا من أسلحة الصراع الذي ساد في عصر الدولة الأموية، ولكنه سلاح[٧٨] "بالكلمة المنغومة التي كانت مجالا لأرباب البيان، وفرسان القول .. استخدموا فيه كل وسائلهم الفنية في هذا النزال الشرس، حفزا للمشاعر، وتثبيتا للقلوب وإضراما لنار العداوة، فاحتدمت بذلك المعارك الحربية، واستعر أورها بين الفريقين، وأخذ رجال الفكر يصورون أحداثها في أدب رفيع رائع فكانت الحصيلة كما هائلا من الفن الأدبي الراقي·فى قصائد تحكي مواقف وبطولات رائعة، ومطولات تعرض للكفاح المرير ضد قوي الشر الباغية، ومقطوعات تسجل آراء ومعتقدات كل فريق، وأناشيد

(٧٧) ديوان جرير ص٥٥ ·

(٧٨) النقائض في عهد البعثة المحمدية (المقدمة) بتصرف ص٥ د/ حسن أحمد الكبير ·

هادرة تدعو إلي الحب والخير، وترك العناد والمكابرة ونقائض تهدم الأضاليل، والآراء التي ــ قد تكون كاذبة ، وتدعو إلي العودة إلي جادة الصواب، وتفسد ما يأتي به الخصم، ومحاولة أن يحل محلها الحق والعدل.

ولقد أثبت العصر الأموي أنه عصر المتناقضات والصراعات، لأنه كان كالمعبر بين مرحلة الجاهلية وصدر الإسلام من جهة، والعصر العباسي فيما بعد.

وفيه ــ أي العصر الأموي[٧٩] ازدهار الحضارة الإسلامية في كافة مقوماتها الروحية والمادية، وبلوغها أقصي أوج الرفعة والتقدم.

---

(٧٩) حلقتا عصري صدر الإسلام وبني أمية ص٣ د/ محمد عبدالمنعم العربي.

فرسان فن النقائض

١- جرير

التعريف به: هو: جرير بن عطية بن حذيفة بن بدر بن مسلمة بن عوف بن كلب بن يربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد بن مناة بن تميم بن مرة بن نزار، وينتهي نسبه إلي مضر .

يكني أبا حرزة، وحرزة اسم ابن له أو بنت .

ويلقب جده بالخطفي، ومعناها السير السريع، وكان جرير معجبا بلقب جده، كثير الترديد له، والافتخار بقبيلته (يربوع)، كما لقب بابن المراغة، وكان له أخوان عمرو وأبوالورد .

وأمه : تسمي شمس، أم قيس بنت سعيد بن عمير[٨٠].

مولده ونشأته: اختلف في يوم مولده، فقيل إنه ولد عام ٣٠هـ، وقيل عام ٤٠هـ، وقيل إنه ولد عام ٤٢هـ، وكان مولده باليمامة وهي قرية قرب الرياض.

نشأ في أسرة فقيرة معدمة، ونشأ في اليمامة، وأحب الشعر مثل قبيلته، ويقال إن رجلا قابله فسأله: من أشعر الناس؟ فاصطحبه إلي أبيه، وكان راعي أغنام، رث الهيئة دميم الشكل، فقال له: أتعرف هذا الرجل؟ قال: لا. قال: هذا أبي. ثم قال للرجل: أشعر الناس من فاخر بمثل هذا الرجل (يعني نفسه).

---

(٨٠) الأغاني ٣/ ٨٨٧ .

وكان يتردد في شبابه بين البصرة والكوفة، وهما معقـل اللغـة والشعر، فصقلت موهبته التي نمت بين قبيلته في البادية، وعلي الرغم من وعورة وخشونة البادية ــ التي نشأ بها ــ فإنه كان ذا عفة وديـن وحسن خلق ورقة طبع ٠

شعره: اتفق علماء الأدب ، وأئمة الشعر، علي أنه أحـد عظمـاء الشعراء في عصر الإسلام وكان يقول الشعر فـي المـديح، يقرضـه للولاة والأمراء في الكوفة والبصرة، لينال عطاياهم كما كان عنيفا في الهجاء : يسكت به من يتعرضون له أو لقبيلته بذم أو سب، كما كـان في **الوصف** رقيقا، مرهف الحس، وهو **في الرثاء** صادق العاطفة كثير الألم ٠

وقد خاض مع الفرزدق والبعيث معركة (النقائض) وله فيها شعر كثير، ومن العجيب أنه لما مات الفرزدق، نعاه بقصيدة من روائع شعر الهجاء منها قوله:

لعمري لقد أشجي تميما وهدها ∴ علي نكبات الدهر موت الفرزدق

.... ∴ ....

.... ∴ ....

لقد غادروا في اللحد من كان ينتمـي ∴ إلي كل نجم في السـماء محلـق

حامل الأنفال عن كـل مغـرم ∴ ودافع شيطان الغشوم السملق[٨١]

عماد تمـيم كلهـا ولسـانها ∴ وناطقها البذاخ في كـل منطـق

---

(٨١) السملق: الشرس ٠

آراء النقاد فيه:

١ – **جعله ابن سلام في الطبقة الأولي من فحول شعراء الإسلام**[٨٢]**.**

٢ – بشار يراه أشعر من الفرزدق.

٣ – (النوار) زوجة الفرزدق،كانت تفضل شعره علي شعر زوجها .

٤ – (الأصمعي) كان يفضل جريرا علي الفرزدق.

٥ – كانت السيدة (سكينة بنت الحسين) تفضل جريرا علي الفرزدق.

وفاته: مات باليمامة سنة (١١٠)هـ، وتوفي بعد الفرزدق بستة أشهر.

طرق جرير أبواب الخلفاء الولاة في العصر الأموي، وامتدحهم بأشعار خلدت مآثرهم، ورفعت ذكرهم. لقد مدح عبدالملك بن مروان والوليد بن عبدالملك، وعمر بن عبدالعزيز، والحجاج، وغيرهم كثيرون من خلفاء الدولة الأموية .

لقد امتاز شعر جرير بالسهولة والعذوبة وقوة المعاني وأسرها وحفظ له التراث العربي بعض الأبيات جعلها النقاد من أفضل ما قيل في الشعر.

جرير يمدح عمر بن عبدالعزيز:

١–هل رام أم لم يرم ذو السدر فالثلم ∴ ذاك الهوي منك لا دان ولا أمم

٢–إن طلابك شيئا لست نائله ∴ جهل وطول لبانات الهوي سقم

٣–يا عاذلي أقلا اللوم قيلكما ∴ قال الوشاة فمعصي ومتهم

٤–إنني ببرقة سلمانن آنقني ∴ منها غداة بدت دل ومبتسم

٥–ذكرتنا مسك داري له أرج ∴ وبالجني خزامي طلها الرهم

---

(٨٢) طبقات فحول الشعراء ١ / ٣٧٤ ابن سلام الجمحي.

٦-حملت رحلي علي الأهوال ناجية .:. مثل الفريع المعني شــقه الســدم
٧-من الطوامح أبصارا إذا خشعت .:. عنها ذرا علــم قــالوا بــدا علــم
٨-حتي انتهينا إلي من لن نجــاوره .:. تجري الأيامن لا بخــل ولا عــدم
٩-إلي الأغر الذي ترجي نوافله .:. إذا الوفود علي أبوابه ازدحموا
١٠-جاءوا اظماء فقد روي دلاءهم .:. فيض يمــد مــن التيــار مقتســم
١١-أنهض جناحي في ريش فقد رجعت .:. ريــش الجنــاحين مــن آبائــك الــنعم
١٢-أنت ابن عبد العزيز الخير لا رهق .:. غمر الشباب ولا أزري بــك القــدم
١٣-تدعو قريش وأنصار الرسول له .:. أن يمتعوا بأبي حفص وما ظلمــوا
١٤-راحوا يحيون محمودا شمائله .:. صلت الجبين وفي عرنينه شــمم
١٥-يرجون منك ولا يخشون مظلمة .:. عرفا وتمطر مــن معروفــك الــديم
١٦-أحيا بك الله أقواما فكنت لهم .:. نور البلاد الذي تجلي به الظلــم
١٧-لم تلق جدا كأجداد يعدهم .:. مروان ذو النور والفاروق والحكم
١٨-أشبهت من عمر الفاروق سيرته .:. سن الفرائض وائتمت به الأمم
١٩-ألفيت بيتك في العلياء مكنه .:. أس البناء وما في سوره هــدم
٢٠-والتف عيصك في الأعياص فوق ربــا .:. تجري لهــن ســواقي الأبطــح العظــم
٢١-وفي قضاعة بيت غير مؤتشب .:. نعم القديم إذا مــا حصــل القــدم
٢٢-وفي تميم له عز قراميــة .:. ذو صولة صــلقم أنيابــه تمــم
٢٣-أنتم أئمة من صلي وعندكم .:. للطــامعين وللجيــران معتصــم
٢٤-والمستقاد لهم إما مطاوعة .:. عفوا وإما علي كره إذا عزمــوا
٢٥-يا أعظم الناس عند العفو عافيــة .:. وأرهب الناس صــولات إذا انتقمــوا

* * *

والأخطل

هو اسم الشهرة ويكني أبا مالك ·

أما اسمه فهو : غياث بن غوث بن الصلت بن طــارق، الــذي ينتمي إلي تغلب بن وائل بن ربيعة بن زار، ويكني أبا مالك، وكانــت أمه ــ ليلي الأيارية تلاغيه في طفولته باسم (دوبل) ،وقــد اســتخدمه جرير في هجائه:

بكي دوبل لا يرقئ الله عينــه .·. إلا أنما يبكي من الــذل دوبــل

أما لفظة الأخطل فمعناها: الذي يخطل في كلامه· فيتلوي ويقسو فيصير هجاء شتاما، وقيل في رواية أخري إن الأخطل طويل الأذنــين مرتخيهما ــ كان يشتهر بأنه شاعر أمير المؤمنين ·

وهو أمدح ثلاثة شعرائهم المتقدمين، والمتفرد بوصــف الخمــر دون الإسلاميين. قال الشعر وهو صبي، ولم يلبث أن زاحــم شــاعر تغلب وقتئذ "كعب بن جعيل"، وهاجاه وظهر عليه، ولما طلب يزيد بن معاوية قبل أن يلي الخلافة من كعب هجاء الأنصار، لتعرض حســان ابن ثابت الأنصاري لأخته في شعره أبي عليه ذلك كعب، وقال: أأهجو قوما نصروا رسول الله ﷺ وآووه، ولكني أدلك علي الأخطل، فبعــث إليه، وأمره بهجائهم، فهجاهم بقصيدة منها:

ذهبت قريش بالسماحة والندي .·. واللؤم تحــت عمــائم الأنصــار

فدعوا المكارم لستم من أهلها .·. وخذوا مساحتكم بنــي النجــار

وبلغ الشعر كبار الأنصار فغضبوا، وشكوه إلي معاوية، فوعدهم بقطع لسانه ،فاستجار بيزيد، فما زال بأبيه حتي عفا عنه.

ولما ولي يزيد الخلافة قربه إليه، وتابعه في ذلك حلفاء بني أمية وبخاصة عبدالملك إذ كان يستعين به علي أعدائهم، فقربه إليه، وأدناه، وسمح له بالدخول عليه بلا إذن، وأجزل له العطايا، وسماه شاعر الخليفة.

ولما حدث المهاجاة بين جرير والفرزدق وحكم فيهما أيهما أشعر عرض بتفضيل الفرزدق، فهجاه جرير، فرد عليه الأخطل، وكانت الشيخوخة قد بلغت منه، فلم يلحق جريرا، وكان الأخطل يقيم أزمانا بدمشق، وأحيانا ببلاده في أرض الجزيرة .

واختلف في مولده، فقيل إنه ولد سنة ١٦هـ ، كما اختلف في سنة موته، فقيل سنة ٩٢ ، وأنه عاش ٧٦سنة .

شعره: كان الأخطل أحد الشعراء الثلاثة السابقين سواهم من فحول الإسلاميين، وكان مطبوعا علي الشعر، بعيدا عن التكلف والتعمق فيه، وامتاز بإجادته المديح، والإبداع في معانيه. قال يمدح بني أمية، ويخص بشر بن مروان:

إن يحلموا عنك فالأحلام شيمتهم ∴ والموت ساعة يحمي منهم الغضب
كأنهم عند ذا كم ليس بينهم ∴ وبين من حاربوا قربي ولا نسب
كانوا موالي حق يطلبون به ∴ فأدركوه وما ملوا ولا لغبوا
إن يك للحق أسباب يمد بها ∴ ففي كفهم الأوسان والسبب

همسعوا بابن عفان الإمام وهم ∴ بعد الشماس مروها ثمت احتلبوا

ومنها:

إذا أتيت أبـــا مـــروان تســـأله ∴ وجدته حاضراه الجود والحسب

تري إليه رفاق الناس ســـائلة ∴ من كل أوب علي أبوابه عصب

يحتضرون سجالا من فواضله ∴ والخير محتضر الأبواب منتهب

والمطعم الكوم لا ينفك بعقرها ∴ إذا تلاقي رواق البيت واللهـــب

كأن حيراتها في كـــل منزلـــة ∴ قتلي مجردة الأوصـــال تســـتلب

ومن أفضل شعره قوله:

والناس همهم الحيـــاة ولا أري ∴ طول الحياة يزيـــد غيـــر خبـــال

وإذا افتقرت إلي الذخائر لم تجد ∴ ذخرا يكون كصـــالح الأعمـــال

وقد لج الأخطل في الهجاء الذي دار بين شعراء عصره، وخاصة مع جرير، فقد كانت بينهما ملامح هجاء مقذع، وفي ذلك قال جريـــر: "أدركت الأخطل وله ناب واحد، ولو أدركته وله نابايـن لأكلني" ذلك أن الأخطل كان قد أسن، وابيضت رأسه ولحيته ، وصار شيخا فانيا ولكن هجاءه كان فظيعا قاسيا، ولم ينس جرير له ذلك ، حتـــي إنـــه هجـــا الأخطل بعد موته، وقال فيه ما عوقب عليه، وذلك في قصيدته التـــي مطلعها:

زار القبـــور أبـــا مالـــك ∴ فكـــان كـــالأم زوارهـــا

وقد عرك الأخطل الشعر وهو فتي، وبدأ بالذم والهجاء ، حتـــي أنه تطاول ببذاءة علي كعب بن جعيل شاعر تغلب، فقال فيه:

ســـميت كعبـــا بشـــر العظـــام .:. وكـــان أبـــوك يســـمي جعيـــل

* * *

وقد تزوج الأخطل إحدي بنات قومه ـــ أم ولده مالك ـــ ثم افترق عنها ٠

وكان شغوفا بمعاقرة الخمر، ويقول إنها تنعش الفـــؤاد، وتنطـــق الشعراء، وراح يقري بها المتوكل عبدالله الليثي: ويحك يا متوكل لـــو نبحت بالخمر في جوفك كنت أشعر الناس٠

* * *

أما بالنسبة لمكانته في الشعر ، فهو أحد الثلاثة الكبـــار، الـــذين جاءوا بعد بعث النبي (ﷺ) ، وهو أيضا أحد فحول الشعراء في تاريخ الشعر العربي كله ٠

جاء في مختصر ترجمة الأخطل في (مسالك الأبصار) :

"ما دام تشبيها فأخطأ، ولا حام علي ورود معني فأبطأ ، وكـــان يجد من بني مروان كنفا موطا ، وشغفا مغطا، علي كونه نصراني يشد الزنار ويشب من كأس حمياء النار، خلص باحتبائهم، واختص بحياتهم ولبس من فواضل نعمهم الديباج، وعلق من شامل كـــرمهم الصـــليب الذهب فوق الحجاج، وأكل الطيبات من الطعام، وسمع المطربات علي

كنوس المدام، وركب جياد الخيل الموسودمه أثمانا المطهمة بما لا يحل الواقع أدمانها، واقنني كرائم النعم، وعظائم النعم، وكـــان يحـــل عنـــه عبدالملك الصدر، ويجل مكانا في رفعة القدر.

* * *

وقد ضرب الأخطل بأسهم نافذة في أهداف الشعر، فأصاب فـــي الهجاء وفي المديح وفي الخمر وفي النسيب، دون أن يلقي بالا لبـــاقي أغراض الشعر، حتي لم يعرف له سوي أربعة أبيات في الرثاء.

وكان يقول تسعين بيتا ثم يستغني عن ثلاثين منها حتي لا يـــذاع له سوي الشعر الجيد.

ومن **خصائص الأخطل** أنه كان متمسكا بدينه، رغم منزلته عنـــد أئمة وحكام المسلمين، بل يروي أنه كان خاضعا مستحذيا إزاء زعماء النصاري حتي قال له قائل: "إن الناس يهابونـــك، والخليقـــة يكرمـــك وقدرك في الناس قدرك، وأنت تخضع لهـــذا الـــدين هـــذا الخضـــوع وتستحذي له. فقال الأخطل: إنه الدين .. إنه الدين.

شاعريته:

علي أن الأخطل غندما دخل بين جرير والفـــرزدق فـــي آخـــر أمرهما، وقد أسن ونفد أكثر عمره، وهو وإن كان له فضل وتقدم فليس نجره من نجار هذين في شئ.

قال الأصمعي: إن جريرا كان ينهشه ثلاثة وأربعون شاعرا فينبذهم وراء ظهره، ويرمي بهم واحدا واحدا، ومنهم من كان ينفخه فيرمي به، وثبت له الفرزدق والأخطل.

وكان أبوعبيدة يقول: شعراء الإسلام: الأخطل، ثم جرير، ثم الفرزدق.

وكان عمرو بن العلاء يفضل الأخطل، ويشبهه بالنابغة (لصحة شعره) **قال:** الأخطل أشبه بالجاهلية، وأشدهم أسر شعر، وأقلهم سقطا ولو أدرك الأخطل يوما واحدا من الجاهلية ما فضلت عليه أحدا، وما قدمت عليه جاهلا ولا إسلاميا.

وقال حماد: ما تسألوني عن رجل حبب إلي شعر النصرانية وقال: أشعر العرب شيخا : الأعشى في الجاهلية، وهو صناج العرب – والأخطل في الإسلام.

وسأل الحجاج قتيبة بن مسلم: من أشعر الشعراء؟ فأجاب معددا صفات الفحول منهم، وقال: الأخطل أوصفهم.

وقال الفرزدق: الأخطل أمدح العرب.

وعندما سأله عبدالملك بن مروان : من أشعر الناس في الإسلام؟

قال الفرزدق: كفاك بابن النصرانية إذا مدح.

وقد اعتز الفرزدق بموقف الأخطل منه، ومساندته إياه ضد جرير وقال في مخاطبة جرير:

يا ابن المراغة إن تغلب وائـــل .:. رفعوا عناني فوق كـــل عنـــان

وكان أبوحاتم ــ سهل بن محمد بن عثمان ــ يفضل جريرا علي الفرزدق فسئل: فما تقول فيهما وفي الأخطل؟ فأطرق ساعة ثم أنشـــد من قصيدة للأخطل:

لعمري لقد أسريت لا ليل عاجز .:. بساهمة الخدين طاوته القـــرب

ثم انشد أبياتا زهاء العشرة، ثم قال: من قال لك إن في الدنيا أحدا قال مثلها قبله ولا بعده فلا تصدقه.

ــ أما الأخطل فكان يعرف مكانته، ويثق في تفوقه، لا يعرف سابقا له غير الأعشي، وكان يعتبر (حبة قلبه): لعمري لقد أســـريت وكـــان يقول: أشعر الناس الأعشي ، ثم أنا .

ــ وسئل ذات مرة عن أشعر الناس، وقال: الذي إذا مدح رفع، وإذا هجا وضع ، الأعشي ثم ابن العشرين (طرفة) ثم أنا.

الفرزدق

التعريف به: هو أبوفراس همام بن غالب بن صعصعة، من بني مجاشع بن دارم، والفرزدق لقبه، والفرزدق الرغيف الضخم تجففه النساء للفتوت، وإنما لقب بذلك لأنه كان غليظا جهما [٨٣].

وقيل في تفسير هذا اللقب غير ذلك، فقد حكي خالد بن كلثوم الكلبي أنه مر به يوما فاستجلسه، فجلس إليه وقد عاذ بالله من شره وأخذ يحدثه حديث أبيه، وينتقي له ما يعجبه، ثم قال له: إني لأذكر يوم لقبك أبوك بـ(الفرزدق) قال: وأي يوم؟ قال: مررت به وأنت صبي، فقال له بعض من كان يجالسه كأن ابنك هذا (الفرزدق) دهقان الحيرة في تيهه وأبهته، فسماك بذلك، فأعجب هذا الفرزدق وجعل يستزيده.

وينتمي الفرزدق لأسرة سامية المكانة، رفيعة القدر في الجاهلية والإسلام. فأبوه غالب كان سيدا جليل القدر، معدودا من كرماء العرب المشهورين.

وكان جده (صعصعة بن ناجية) يلقب (بمحيي الموءودات) فيروي أنه حضر عند رجل يريد وأد وليدة له من الفقر، فاشتري صعصعة روحها منه بناقتين وفصيلهما وفحل كان يركبه، وقد هداه شعوره هذا أنه قد أتي مكرمة لم يسبق إليها ، فعاهد نفسه ألا يسمع بموءودة إلا افتداها من الموت، فلما جاء الإسلام كان قد فدي ثلاثمائة موءودة، وقيل أربعمائة .

---

(٨٣) الأغاني ٢١/ ٢٧٦، ٢٩٧ .

وقد وفد علي النبي (ﷺ) في وفد تميم وأسلم، وأوصاه النبي (ﷺ) ببعض الوصايا، وكان الفرزدق شديد الفخر بحسبه وآله ، فكان يطير بفخره إلي عنان السماء، حتي أنه كان يتطاول علي الخلفاء، وكان هجاء، وأهاجيه في نقائضه مع جرير مشهورة معروفة، حتي إن الناس كانوا يخشون هجاءه ويتحاشونه، ويتقون هجاءه مهما كلفهم ذلك من التذلل والتوسل ، واشتهر بالتبذل والفسوق.

وكان أميا لا يقرأ ولا يكتب، ولكن كان يمتلك حافظة واعية وذاكرة لاقطة ، وقد بدأت موهبة الفرزدق الشعرية في التفتح في سن مبكرة.

وكان **ميلاده** بالبصرة سنة ٢٠هـ، وقيل ٢٤هـ ، أما **وفاته** فقيل سنة عشر ومائة هجرية، وقيل سنة أربع عشرة ومائة هجرية وهي الأرجح، وقد حزن عليه صاحبه جرير ورثاه، ومات بعده بستة أشهر من العام نفسه.

شاعريته: كان لشعره قيمة كبري، اعترف به النقاد، وتناولوه بالتمحيص والتقدير.

فقال يونس بن حبيب: لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث اللغة، وكان يلجأ إلي التعقيد والتداخل، مما دفع علماء اللغة إلي التحامل عليه، في قوله في مدح هشام المخزومي:

وما في الناس إلا مملكا .:. أبو أمه حي أبوه يقاربه

شعره: يمتاز شعر الفرزدق بفخامة عبارته، وجزالة لفظه، وكثرة غريبه ، ومداخلة بعض ألفاظه في بعض، ولذلك يعجب به أهل اللغة والنحو. وكان يقال (لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث اللغة) ويعتبر الفرزدق من أفخر شعراء العرب ،وأشدهم ولوعا بتعداد مآثر آبائه وأجداده.

ومن جيد شعره قوله يمدح علي بن الحسين:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته ∴ والبيت يعرفه والحل والحرم

هذا ابن خير عباد الله كلهم ∴ هذا التقي النقي الطاهر العلم

وليس قولك من هذا؟ بضائره ∴ العرب تعرف من أنكرت والعجم

إذا رأته قريش قال قائلها ∴ إلي مكارم هذا ينتهي الكرم

يغضي حياء ويغضي من مهابته ∴ فلا يكلم إلا حين يبتسم

بكفه خيزران ريحها عبق ∴ من كف أروع في عرنينه شمم

يكاد يمسكه عرفان راحته ∴ ركن الحطيم إذا ما جاء يستلم

ينشق ثوب الدجي عن نور غرته ∴ كالشمس تنجاب عن إشرافها الظلم

من معشر حبهم دين، وبغضهم ∴ كفر وقربهم ونحي ومعتصم

إن عد أهل التقي كانوا أئمتهم ∴ أو قيل من خير أهل الأرض قيل هم

* * *

ب- الشعر السياسي : كان لتعدد الاتجاهات السياسية في عصر الدولة الأموية، من أمويين وخوارج وشيعة وزبيريين ومهالبة، أن ظهر عدد من الشعراء، ينتمي كل منهم إلي اتجاه من هذه الاتجاهات وكان شعره يبرز انتماءه، فهو يدافع عن معتقده السياسي، من منطلق الانضواء تحت فكر أصحابه، وينافح بكل ما لديه من طاقة، ويهاجم الاتجاهات الأخري.

"وكان العصر الأموي عصر النمو والتطور لبعض تلك العلوم الجديدة (كعلم الكلام)" [١] مما أتاح لأدباء هذا العصر – من شعراء وخطباء – أن يستعملوا الأساليب المنطقية في جدلهم الدائر حول مسألة الخلافة، وأحقية أي من هذه الاتجاهات بها ، وكان من الأسباب نقل العاصمة إلي دمشق، وتغيير نظام الحكم.

كما كان استمرار الصراع بين القبائل، وتشيعها إلي تلك الاتجاهات، ما أجج نيران تلك العصبيات، ودفعها إلي التناحر بسلاح الكلمة، الذي كانت آثاره أشد وقعا من حرب السلاح.

وقد أدي (فن النقائض) دورا مهما، إذ أثري الحياة الأدبية بهذا الكم الهائل من هذا النتاج، الذي غذي الحياة العامة، وأصبح وسيلة من وسائل ذيوع الصراع وانتشاره، وأصبح الناس ينتظرون ما تجئ به قرائح الشعراء، ليكون مادة خصبة لما يدور بين الناس من تأييد أو رفض لنواحي الصراع المتعددة .

---

(١) حلقتا عصري صدر الإسلام وبني أمية د/ محمد عبدالمنعم العربي.

ويعد (الكميت بن زيد الأزدي) أشهر الشعراء بقصيدته التي يقول فيها:

طربت وما شوقا إلى البيض أطرب ∴ ولا لعبا مني وذو الشيب يلعب

التي يصرح فيها بحق آل هاشم ــ رهط النبي ــ بأحقيتهم في الخلافة ــ على الرغم من أنه من الأمويين.

ويتميز هذا اللون من الشعر، بفخامة الألفاظ، ونصاعة الحجة وعمق الفكرة، وقوة الدلالة، وبراعة العارضة.

يقول د/ حسن ربيع: "هذا الشعر ــ أي السياسي ــ كان جديدا لأنه صورة حزبية جديدة، وأن معانيه جديدة، تقوم على الجدل الديني والسياسي، ولأن أسلوبه خصب قوي جزل، ولأن اشعراء تفوقوا فيه.."[١].

ومنه قول ابن قيس الرقيات:

إنما مصعب شهاب من الله ∴ تجلت عن وجهه الظلماء

ملكه ملك قوة ليس فيه ∴ جبروت ولا به كبرياء

يتقي الله في الأمور وقد أفلح ∴ من كان همه الاتقاء

(١) في الأدب الإسلامي والأموي ص١٧٣ .

اتجاهات الشعر في العصر الأموي

١- أغراضه: تعددت أغراض الشعر في العصر الأموي، وكـان من أبرزها:

أ- المديح: كان لاهتمام خلفاء الأمويين بالشعراء، وحرصهم علي احتوائهم، وإغداق الأموال عليهم، كما كان لأهل البوادي، وما يعانونه من شظف العيش، وقسوة الحياة، وما عـرف عـن الحيـاة الرغـدة والرفاهية التي يعيشها أهل المدن ـــ مما دفعهم إلـي الهجـرة ، إلـي الخلفاء والولاة، لعلهم يجدون في كنفهم ما يعينهم علي الحياة، كان لهذه العوامل، أثر كبير في ارتقاء المديح، وقد تأثر هذا الغرض بالمبـادئ الأخلاقية الإسلامية، وتحول من المدح الحسي المرتبط بالجسم والبنيـة والمبالغة والكذب، إلي مدح المعاني والأخلاقيـات، "عمـلا بمبـادئ الإسلام الذي ينكر الثناء بالباطل، ولا يقر المدح الكاذب"[١].

وتردد شعر المديح علي ألسنة الشعراء الذين كانوا يترددون علي بلاط بني أمية، وكان الأخطل، في مقدمة هؤلاء الشعراء، ومن شـعره في ذلك يمدح بني أمية:

حشد علي الحق عيافو الخنا أنف ∴ إذا ألمت بهم مكروهة صـبروا
وإن تدجت علي الآفاق مظلمة ∴ كان لهم مخرج منها ومعتصـر
أعطاهم الله جدا ينصرون بـه ∴ لا جد إلا صـغير بعـد محتقـر
بنـي أميـة نعمـاكم مجللـة ∴ تمت فلا منـة فيهـا ولا كـدر

---

(١) حلقتا عصر صدر الإسلام وبني أمية ص٢٥ د/ محمد عبدالمنعم العربي.

وكان الأخطل ـ لمديحه خلفاء بني أمية ـ مقربا منهم، شديد الصلة بهم، وقد أطلقوا عليه ـ لمدائحه ـ شاعر الخليفة، وقد امتاز وأطنب في مديح بني أمية، وبز قرناءه من الشعراء ٠

ومن مدائح (جرير) قوله يمدح العباس بن الوليد بن عبدالملك(١):

وللعباس مكرمة وبيت ∴ علي العلياء مرتفع السواري
وإن العيس قد رفعت إليكم ∴ بعيد الأهل معتمد المزار
وإنك خير موضع رحل ضيف ∴ وأوفي العالمين بعقد جار
فيابن المطعمين إذا شتونا ∴ ويابن الذائدين عن الذمار
وتمطر من نداك يداك فضلا ∴ إلي كرم الشمائل والنجار
نفاخر غيركم بكم قريش ∴ إذا ما عد مكرمة الفخار
وتوقد نار مكرمة وأحري ∴ إذا ما المحل أخمد كل نار
ويوم العقر ألحمت السرايا ∴ لميمون النقيبة وهو شار

* * *

ومن المدح السياسي ما قاله ابن قيس الرقيات(٢):

حبذا العيش حين قومي جميع ∴ لم تفرق أمورها الأهواء
قبل أن تطمع القبائل في ملك قريش وتشمت الأعداء
أيها المشتهي فناء قريش ∴ بيد الله عمرها والفناء

---

(١) ديوان جرير ص٦٢٤ ٠
(٢) ديوان عبدالله بن قيس الرقيات ص٨٨ دار صادر بيروت ١٩٨٠م٠

إن تودع مــن الــبلاد قــريش ∴ لا يكــن بعــدهم لحــي بقــاء

....

إنما مصعب شــهاب مــن اللـــه تجلــت عــن وجهــه الظلمــاء

ملكه ملــك قــوة لــيس فيــه ∴ جبــروت، ولا بــه كبريـــاء

يتقي الله فــي الأمــور وقــد أفـــلح مــن كــان همــه الاتقــاء

الوصف

"وهو شرح حال الشئ، وهيئته علي ما هو عليه في الواقع لإحضاره في ذهن السامع كأنه يراه أو يشعر به"(١)٠

والوصف من الأغراض القديمة التي طرقها الشعراء منذ العصر الجاهلي، وكانت الصحراء وما فيها من حيوان والطبيعة التي حولهم من سماء وليل وسحب وغيرها، والجيوش التي كانت تخرج للإغارة وما يحدث في المعارك من كر وفر، وطعن وقتل. كانت هذه الأشياء كلها هي الموضوع الذي يدور حوله شعر الوصف، فالعرب وصفوا كل شئ رأوه أو عانوه وخالط نفوسهم ٠

وفي عصر النبوة والخلفاء الراشدين، ظل الشعراء علي المنهج نفسه، وأضافوا إليه ما استجد علي حياتهم من مرئيات ومشاهد لم تكن في العصر الجاهلي ٠

ولما جاء عصر بني أمية، توسع الشعراء في الوصف، تبعا لما استجد عليهم من مظاهر التحضر، من مجالس الغناء في مكة والمدينة، وفي قصور الخلفاء في دمشق، وما أحاط بهم في حاضرة الدولة من قصور فخمة، وحدائق غناء، وحلقات اللهو والسمر والخمر، والحرب والسلم كما تطرق إلي وصف الشعوب الأخري والحروب الخارجية والمصارع السياسية وأدوات الحرب، ومظاهر الترف وأحوال العمران٠

---

(١) في الأدب الإسلامي والأموي د/ سليمان ربيع ٠

فهذا هو (الفرزدق) وقد ولد في البصرة، المدينة الإسلامية، لآخر عهد الخليفة الثاني، وعرفت أسرته منذ الجاهلية بالرقة، والبعد عن الفظاعة والوحشة ، يصف الذئب فيقول[1]:

وأطلس عسال وما كان صاحبا ∴ دعوت بناري موهنا فأتاني

فلما دنا قلت ادن دونك إنني ∴ وإياك في زادي لمشتركان

فبت أسوي الزاد بيني وبينه ∴ علي ضوء نار مرة ودخان

فقلت له لما تكشر ضاحكا ∴ وقائم سيفي من يدي بمكان

تعش فإن واثقتني لا تخونني ∴ نكن مثل من يا ذئب يصطحبان

وأنت امرؤ يا ذئب والغدر كنتما ∴ أخيين كانا أرضعا بلبان

ولو غيرنا نبهت تلتمس القري ∴ أتاك بسهم أو شباة سنان

* * *

وهذا (ذو الرمة) في وصفه (عين أثال) طامية تصطخب الضفادع والحيتان فيها، وينتزعها جدول كالسيف منصلت بين النخل الصغير يعلوه الجريد[2] فيقول:

عينا مطحلبة الأرجاء طامية ∴ فيها الضفادع والحيتان تصطخب

يستلها جدول كالسيف منصلت ∴ بين الأشاء تسامي حوله العشب

* * *

(١) ديوان الفرزدق وانظر: شعر الطبيعة في الأدب العربي ١٢٥ .
(٢) شعر الطبيعة في الأدب العربي ١٥٢ .

ومن شعر الوصف، ما قاله **(الوليد بن يزيد)** في وصف الخمر:

مــن قهــوة زانهــا تقادمهــا .:. فهي عجوز تعلو علــي الحقــب

أشهي إلي الشرب يوم جلوتها .:. مــن الفتــاة الكريمــة النســب

فقــد تجلــت ورق جوهرهــا .:. حتي تبدت فــي منظــر عجــب

فهي بغير المزاج من شــرر .:. وهي لدي المزج سائل الــذهب

كأنهــا فــي زجاجهــا قــبس .:. تذكو ضياء في عــين مرتقــب

الرثاء

من أقدم أغراض الشعر وأصدقها، وهو فن طبيعي، لأن الموت سنة دائمة، وهو يصدر عن عاطفة صادقة عميقة، والرثاء هو ذكر محاسن الميت ومناقبه، ولا يحدث إلا إذا كان الشاعر متأثرا تأثرا حقيقيا، بما كان يصدر من الميت — في حياته — من طيب الفعال "وشعر الرثاء من أجود ما قالته العرب في أغراضها المختلفة[١] فإن حزن الشاعر لفقد إنسان عزيز، واكتوي بنار فراقه، صور لنا آلامه وأحزانه، بذكر ما كان عليه الراحل من فضائل الأعمال، وجليل الصفات، فهو غرض نبيل لا يستغني عنه في أي عصر.

وهو دليل علي صدق عاطفة الشاعر، وجميل وفائه، وصدق تأثره، لأن الشاعر حين يرثي لا ينتظر جائزة ولا مكافأة، بل يعبر عن ألمه وتفجعه ووجيعته. فإذا كان الميت قريبا أو زوجة، فإن رثاءه يكون أبلغ وأشد.

ولما جاء الإسلام — هذب مشاعر الناس تجاه هذا الحدث، لأنه أعلمهم بأن الموت مرحلة من مراحل حياة الإنسان، يمثل الانتقال من الحياة الفانية إلي الحياة الباقية بكل ما فيها من خلود أبدي، ونعيم سرمدي.

---

(١) شاعر يرثي نفسه (مالك بن الريب) ص٥ د/ محمد عبدالمنعم العربي.

وفي شعر العصر الأموي نماذج رائعة راقية لغرض الرثاء، منها في رثاء الابن، "ما رثي به جرير ابنا له ــ يقال له سوادة ــ هلك بالشام[(١)]:

قالوا نصيبك من أجر فقلت لهم ∴ من للعرين إذا فارقت أشبالي

لكن سوادة يجلو مقلتي لحم ∴ باز يصرصر فوق المرقب العالي

قد كنت أعرفه مني إذا غلقت ∴ رهن الجياد ومد الغاية الغالي

إلا تكن لك بالديرين باكية ∴ فرب باكية الرمل معوالي

ترتع ما نسيت حتي إذا ذكرت ∴ ردت هماهم حري الجوف مثكال

زدنا علي وجدها وجدا وإن رجعت ∴ في القلب منها خطوب ذات بلبال

فارقتني حين كف الدهر من بصري ∴ وحين صرت كعظم الرمة البالي

إن الثوي بذي الزيتون فاحتسبي ∴ قد أسرع اليوم في عقلي وفي حالي

* * *

ومن أشهر شعراء الرثاء: **مالك بن الريب** ــ المازني التميمي وهو هنا يرثي نفسه، وذلك "أمر غريب، ولذا فهو قليل، ولكنه نوع طريف، ولون فريد في الرثاء، يستحق التنويه، والوقوف عنده مليا لاستكناه تلك المشاعر الإنسانية النادرة، التي تصدر عن الشاعر ، في لحظات وداعه للدنيا واستقباله الموت، وهي لحظات صعبة رهيبة، لا يقوي علي التركيز فيها واستجماع المشاعر عندها، والتعبير عنها

---

(١) ديوان جرير ص٥٨٤ .

شعراء، إلا قلة من الشعراء، وثلة من الفصحاء الأذكياء، أشهرهم (مالك ابن الريب) الشاعر الإسلامي الذي توفي في أوائل عهد بني أمية[١].

وكان الشاعر "قد فاجأه الموت وهو عائد من الغزو في (خراسان) ولدغته حية فتخلف معه رجلان من أصحابه، فلما أحس بالموت قال"[٢]:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة ∴ بجنب الغضي أزجي القلاص النواجيا
فليت الغضي لم يقطع الركب عرضه ∴ وليت الغضي ماشي الركاب لياليا

ثم يقول:

تقول ابنتي لما رأت طول رحلتي ∴ سفارك هذا تاركي لا أباليا
لعمري لئن غالت (خراسان) هامتي ∴ لقد كنت عن بابي خراسان نائيا
لله دري يوم أترك طائعا ∴ بني بأعلي الرقمتين وماليا

إلي أن يقول (في رثاء نفسه):

تذكرت من يبكي علي فلم أجد ∴ سوي السيف والرمح الرديني باكيا
وأشقر حنذيذ يجر عنانه ∴ إلي الماء لم يترك له الدهر ساقيا
ولكن بأطراف (السمينة) نسوة ∴ عزيز عليهن العشية ما بيا
صريع علي أيدي الرجال بقفرة ∴ يسوون لحدي حيث حم قضائيا

---

(١) شاعر يرثي نفسه ص٦ د/ محمد عبدالمنعم العربي، وانظر: الأمالي وجمهرة أشعار العرب ، خزانة الأدب ، المنتخب من أدب العرب.
(٢) المرجع السابق ص٦٣ ، وحلقتا عصر صدر الإسلام وبني أمية ص٤٠ د/محمد عبدالمنعم العربي .

ولما تراءت عند (مرو) منيتي .·. وخل بها جسمي وحانت وفاتيـا

أقول لأصحابي ارفعوني فإنــه .·. يقر لعيني أن سـهيل بـدا ليـا

فياصاحبي رحلي دنا الموت فانزلا .·. برابيــة، إنــي مقــيم لياليـا

وقوما إذا ما استل روحي فهيئا .·. ولا تعجلاني قد تبـين مـا بيـا

وخطا بأطراف الأسنة مضجعي .·. وردا علي عيني فضـل ردائيـا

ولا تحسداني ــ بارك الله فيكما ـــ .·. من الأرض ذات العرض أن توسعاليـا

خذاني فجراني ببردي إليكمـا .·. فقد كنت قبل اليوم صعبا قياديـا

* * *

ولما مات الفرزدق، بعد أن عاش عمرا طويلا قارب المائة، رثاه جرير، فقال[١]:

فجعنا بحمال الديات ابن غالب .·. وحامي تمـيم كلهـا والبـراجم

بكيناك حدثان الفـراق وإنمـا .·. بكيناك شجوا للأمـور العظـائم

فلا حملت بعد ابن ليلي مهيرة .·. ولا شد أنساع المطي الرواسـم

* * *

ورثي جرير زوجته (خالدة بنت سعد) فقال:

لولا الحياء لهـاجني اسـتعبار .·. ولزرت قبرك، والحبيـب يـزار

ولقد نظرت ، وما تمتع نظـرة .·. في اللحد، حيث تمكن الأحفار[٢]

ولهت قلبي إذ علتنـي كبـرة .·. وذوو التمائم من بنيـك صـغار

---

(١) ديوان جرير ٩٧٦ .

(٢) الأحفار : دمع وزان القبور .

الغزل

ويعد عمر بن أبي ربيعة أنجب تلاميذ امرئ القيس في هذا الضرب من قصص الغزل وآخذهم بأسبابه: تلقي أصوله عنه، وخلفه فيه، لكنه لم يلتزم حدوده، ولا أخذ أخذه فيه عن متابعة غافلة، بل مد أطرافه، وفصل أحداثه، وأمعن في تصوير مشاهده، وأدار حواره في براعة ظاهرة، واقتدار عجيب، واستقصاء بعيد، لا تعييه مآزق الشعر، أو تضطره إلي تكلف واعتساف[1] قال :

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر .:. غداة غد أم رائح فمهجر

وليلة ذي دوران جشمتني السري .:. وقد يجشم الهول المحب المغرر

فبت رقيبا للرفاق علي شفي .:. أحاذر منهم من يطوف وأنظر

إليهم متي يستمكن النوم منهمو .:. ولي مجلس لولا اللبانة أوعر

وباتت قلوصي بالعراء ورحلها .:. لطارق ليل أو لمن جاء معور

وبت أناجي النفس أين خباؤها .:. وكيف لما آتي من الأمر مصدر

فدل عليها القلب ريا عرفتها .:. لها وهوي النفس الذي كاد يظهر

فلما فقدت الصوت منهم وأطفئت .:. مصابيح شبت بالعشي وأنور

وغاب قمير كنت أرجو غيوبه .:. وروح رعيان ، ونوم سمر

ونفضت عني العين أقبلت مشية الحباب، وشخصي خيفة القوم أزور

فحييت إذ فاجأتها فتولهت .:. وكادت بمكنون التحية تجهر

وقالت وعضت بالبنان فضحتني .:. وأنت امرؤ ميسور أمرك أعسر

(١) الديوان ١٨٤، الكامل ٢/ ١٨ .

أريتك إذ هنا عليك ألم تخــف ∴ رقيبا وحولي من عدوك حضـــر
فوالله ما أدري أتعجيل حاجـــة ∴ سرت بك أم قد نام من كنت تحذر؟

* * *

وكان الغزل **في الجاهلية** حسيا، يتناول المرأة وجمالها الجســـمي غالبا، ويذكر أجزاء جسمها بالتفصيل، كما لو كانت ناقة أو فرسا وكان مطلع القصيدة يبدأ غالبا بالغزل (التشبيب) تمهيدا لما يلي ذلـــك مـــن أغراض. "والغزل الحسي بنوعيه الفـــاحش وغيـــر الفـــاحش، أكثـــر اتجاهات الغزل شيوعا وكما في هذا القرن بخاصـــة، وفـــي عصـــور الأدب العربي بعامة"[١].

وفي **عصر صدر** الإسلام، نحا هذا الفن منحي أخلاقيا، وخضـــع لتعاليم الإسلام التي تنهي عن الفحشاء والمنكر، فظهر الغزل الصوفي أو النفسي، الذي يتحدث عن جمال النفس، وهجـــر المـــرأة وصـــدها والتحدث عن تمسكها بالأخلاق والقيم.

ثم ظهرت **في العصر الأموي** ـــ جماعات من الشـــعراء، أطلـــق عليهم اسم العذريين ـــ نسبة إلي قبائل بني عذرة، والواقعيين.

ويذهب الأستاذ/ يوسف حسين بكار، إلي أن شـــعراء الغـــزل[٢] "أكثروا من ذكر العذال والوشاة والرقباء، وشكوا من نقـــض العهـــود،

---

(١) اتجاهات الغزل في القرن الثاني ص١١١ دار المعارف .
(٢) اتجاهات الغزل في القرن الثاني ص٢٥ .

وإخلاف المواعيد، وتألموا من المماطلة والتسويف، وحنوا إلـــي أيـــام الشباب، وذموا الشيب، لأنه مدعاة لصدود النساء.

والقارئ لهذا الغزل لا يجد فيه أثرا لعاطفة قوية، أو تعبير عـــن ألم حقيقي، أو إحساس بنفس مجربة، إلا في القليل النادر ...".

وعلي الجانب الآخر، نجد مجموعة من الشعراء الـــذين يـــرون الغزل في ظلال الإسلام عفيفا .

الهجاء

كان الهجاء أول الأمر يدور في جملته علي تعيير المهجو بقبيلته وذمه في شخصه، يرمي قبيله بلؤم الأصل، ورقة النسب، وقلة العـدد وما يأخذ هذا المأخذ من معايب الجماعة في حيـاة الباديـة، ويرمـي شخصه بالجبن والخور، وبالبخل وقلة الغناء وما يشبه ذلك، مما يزري به، ويصغر من قدره في الناس من حوله، بمقياس المثل والقيم التـي يؤمن بها العرف، وينزلها منه منزلة الرعاية والإكبار.

ولعل هذا هو سر تسميته بالهجاء، لا بالذم، أو القدح مـثلا، ثـم تفسير الهجاء بالتجزئة والتقطيع، أخذا من هجاء الكلمات، كأن الـذي يهجو آخر ــ وقد تناوله في أصله وذاته ــ إنما يمزق عرضه، ويمثل بشخصه ، ولا يدع له من عرضه إلا مزقـا ، ولا مـن شخصـه إلا أشلاء، والمعني الأدبي الحق لهذا الفن هو ذكر المثالب، ونفي الفضائل بأسلوب ساخر تهكمي، يدعو إلي السخرية والضحك، وهو غير السب والشتم وإلا فحاسن.

ولعل هذا أيضا سر تفريق أبي تمام في حماسته بين عيب الرجال وعيب النساء، ثم تسميته عيب الرجال هجاء، وعيب النساء مذمة. كأنه ينظر إلي مذهب الشعر في كل من النوعين، فرأي الأول ــ كما أسلفنا ــ لا يبقي علي الرجل ولا قبيله، ورأي الآخر يدور في أكثـره علـي وصف المرأة بالدمامة وسوء الصحبة، وسلاطة اللسان، فهـو يوجـع

المرأة، ولكن لا ينال من أرومتها من قريب أو بعيد، كالذي يعيب بـه بعض النساء بعضا.

وفي **العصر الأموي** أخذ الهجاء يستحيل إلي السب والشتم والقبح والإقذاع المر، وتناول الأعراض والعورات، كما حدث بين جرير والفرزدق والأخطل.

والهجاء في أصله جزاء علي سيئة، أو أخذ بالإعراض عن دعوة، وكان في الجاهلية أقرب إلي النهج السوي المعقول، وفيه علي كل حال تنفيس من كرب، وراحة من ثقل، ورضا من سخط.

فهذا (الفرزدق) يهجو (إبليس) ويعدد آثامه وجناياته، فيقول:

ألا طالما قد بت يوضع ناقتي ∴ أبوالجن إبليس بغير خطام

يظل يمنيني علي الرحل واركا ∴ يكون ورائي مرة وأمامي

يبشرني أن لن أموت وأنه ∴ سيخلدني في جنة وسلام

فقلت له: هلا أخيك أخرجت ∴ يمينك من خضر البحور طوامي

رميت به في اليم لما رأيته ∴ كفرقة طودي يذبل وشمام

فلما تلاقي فوقه الموج طاميا ∴ نكصت ولم تحتل له بمرام

ألم تأت أهل الحجر والحجر أهله ∴ بأنعم عيش في بيوت رخام

فقلت: اعقروا هذي اللقوح فإنها ∴ لكم أو تنيخوها لقوم عرام

فلما أناخوها تبرأت منهم ∴ وكنت نكوصا عند كل ذمام

وآدم قد أخرجته وهو ساكن ∴ وزوجته من خير دار مقام

وأقسمت يا إبليس أنك ناصح ∴ لـه ولهـا إقسـام غيـر أثـام

فظلا يخيطان الوراق عليهما ∴ بأيديهما من أكـل شـر طعـام

الفرزدق يهجو جريرا، [لما عجز عن مفاخرته[١]:

قال ابن صانعة الذروب لقومه ∴ لا أسـتطيع رواسـي الأعـلام

ثقلت علي عما يتلق ولم أجـد ∴ حسبا يحرك لـي جبـال شـمام

قالت تجاوبـه المراغـة أمـه ∴ قد رمت ويل أبيك غيـر مـرام

فاسكت فإنك قد غلبت ولم تجد ∴ للقاصـعاء مـآثر الأيـام

ووجدت قومك فقئوا من لؤمهم ∴ عينيـك عنـد مكـارم الأقـوام

صغرت دلاؤهم فما ملئوا بهـا ∴ حوضا ولا شهدوا عراك زحـام

أرداك حينك إذ تعارض دارمـا ∴ بأدقـة متقاعسـين لئـام

وحسبت بحر بني كليب مصدرا ∴ فغرقت حين وقعت في القمقـام

في حومة غمرت أباك بحورها ∴ في الجاهليـة كـان والإسـلام

إن الأقارع والحتـات وغالبـا ∴ وأبـا هنيـدة دافعـوا لمقـام

بمناكب سبقت أباك صـدورها ∴ ومـآثر لمتـوجين كـرام

وقد ظهر الغزل العفيف ، في بادية الحجاز، فـي بنـي عـذرة وخزاعة، ممن يؤمنون بطهارة الحب والعفة في العلاقة بـين الشـاب والفتاة، وقد تساند هذا الاتجاه عوامل اقتصادية أو تقاليد قبليـة، تمنـع الشاب من الزواج بالفتاة التي عرض بحبه لها، أو تشبيبه بها٠

---

(١) ديوان الفرزدق ١/ ١٢٣ ـ أزاميل الحذائين : حجر اليربوع٠
القاصعاء : حجر اليربوع ٠

فإذا ملك حبها عليه مشاعره وأحاسيسه، أعطاها عصارة حياته وذوب قلبه شعرا يهيم به في البوادي، وهو في هذا يعبر عن حبه في عفة، مصورا آلام الفراق، وحرارة الشوق والبكاء والألم.

وهذا النوع من الغزل العفيف الطاهر يحمل في طياته صدق العاطفة، وسمو العبارة وعمق الحزن، ولا يلبث قارئ هذا الغزل العذري ، إلا أن ينخرط مع صاحبه في مشاعره وأحاسيسه، ويشفق عليه، ويشاركه في كل انفعالاته، حتي الطير يشاركه مشاعره.

يقول جميل بثينة:

وما زلتم يابثن حتي لو انني ∴ من الشرق أستبكي احمام بكي ليا
إذا خدرت رجلي وقيل شفاؤها ∴ دعاء حبيب كنت أنت دعائيا
وما زادني النأي المفرق بعدكم ∴ سلوا ولا طول التلاقي تلاقيا
لقد خفت أن يغتالني الموت بغتة ∴ وفي النفس حاجات إليك كما هيا
وإني لينسيني لقاؤك كلما ∴ لقيتك يوما أن أبثك ما بيا

* * *

ومن هذا الغزل، قول (عمرو بن أبي ربيعة) [(١)]:

باسم الإله تحية لمتيم ∴ تهدي إلي حسن القوام مكرم
وصحيفة ضمنتها بأمانة ∴ عند الرحيل إليك أم الهيثم
فيها التحية والسلام ورحمة ∴ حف الدموع كتابها بالمعجم

---

(١) عن: القيم الإسلامية في الأدب العربي د/ صابر عبدالدايم ص١٣ وما بعدها.

من عاشق كلف يبـوء بذنبـه .·. صب الفؤاد معاقـب لـم يظلـم
بادي الصبابة قد ذهبت بعقلـه .·. كلف بحبـك يـا عثـيم متـيم
يشكو إليـك بعبـرة وبعولـة .·. ويقول أمـا إذ مللـت فـأنعمي
لا تقتليني يـا عثـيم فـإنني .·. أخشي عليك عقاب ربك في دمي
إن لم يكن لك رحمة وتعطـف .·. فتحرجي من قتلنـا أن تـأثمي
لم يخط سهمك إذ رميت مقاتلي .·. وتطيش عنك إذا رميتك أسهمي
ووجدت حوض الحب حين وردته .·. مـر المذاقـة طعمـه كـالعلقم
لا والذي بعث النبـي محمـدا .·. بالنور والإسـلام ديـن القـيم
وبما أهل به الحجيج وكبـروا .·. عند المقام وركن بيت المحـرم
والمسجد الأقصي المبارك حوله .·. والطور حلفة صادق لـم يـأثم
ما خنت عهدك يا عثيم ولا هفا .·. قلبي إلي وصل لغيرك فـاعلمي
فكي أسـيرا يـا عثـيم فإنـه .·. خلـط الحيـاء بعفـة وتكـرم
ورعي الأمانة في المغيب ولم يخـن .·. غيب الصديق وذاك فعل المسلم
أحصيت خمسة أشهر معـدودة .·. وثلاثة مـن بعـدها لـم تـوهم
هذي ثمانيـة تهـل وتنقضـي .·. عالجت فيها سقم صـب مغـرم
مكث الرسول لديكم حتـي إذا .·. قدم الرسول وليتـه لـم يقـدم
لم يـأتني لكـم بخـط واحـد .·. يشفي غليل فـؤادي المتقسـم
وحرمتني رد السؤال وما أري .·. رد السلام علي الكريم بمحـرم
إن كنت عاتبة علي فأهل مـا .·. أن تعتبي فيما عتبت وتكرمـي
أنت الأميرة فاسمعي لمقـالتي .·. وتفهمي من بعض ما لم تفهمي

إني أتوب إليك توبـــة مـــذنب .·. يخشي العقوبة من مليك مـــنعم

حتي أنال رضاك حيث علمتـــه .·. بطريف مـــالي والتليــد الأقـــدم

وأعوذ منك بك الغداة لتصفحي .·. عما جنيت من الذنوب وترحمي

أن تقتلي عذري فلست بعائـــد .·. حتي تغادر في المقابر أعظمـــي

لو كفي اليمني سأتك قطعتهـــا .·. ولذقت بعد رضائك عيش الأجذم

* * *

الحماسة

وقد وجدت أسبابها، وتوفرت دواعيها، في تلك الحروب الكثيـــرة التي شبت، والمعارك التي اندلعت، وكان من أعنفها ما كان بين الدولة و(الخوارج)، وقد اشتهر زعماء الخوارج بالشجاعة في خوض القتـــال وبالبطولة والفدائية، كما اشتهروا باللسن والفصـــاحة والشـــعر، فهـــم زعماء وفرسان هذا اللون، ومن أبرز شعرائهم (قطري بن الفجـــاءة) المقتول عام ٧٩هـــ والذي يقول:

لا يركنن أحـــد إلـــي الإحجـــام ∴ يوم الـــوغي متخوفـــا لحمـــام

فلقد أرانـــي للرمـــاح دريئـــة ∴ من عن يميني مـــرة وأمـــامي

حتي خضبت بما نحدر من دمـــي ∴ أكتاف سرجي أو عنان لجـــامي

ثم انصرفت وقد أصبت ولم أصب ∴ جذع البصيرة، قارح الإقـــدام[١]

* * *

ويقول في موقف آخر:

أقول لها وقد طـــارت شـــعاعا ∴ من الأبطال ويحك لـــن تراعـــي

فإنك لـــو ســـألت بقـــاء يـــوم ∴ علي الأجل الذي لك لم تطـــاعي

فصبرا في مجال الموت صبرا ∴ فمـــا نيـــل الخلـــود بمســـتطاع

ولا ثوب البقـــاء بثـــوب عـــز ∴ فيطوي عن أخي الخنع اليـــراع

سبيل الموت غاية كـــل حـــي ∴ فداعيـــه لأهـــل الأرض داعـــي

ومن لا يعتبط يســـأم ويهـــرم ∴ وتسلمه المنون إلـــي انقطـــاع

وما للمرء خيـــر فـــي حيـــاة ∴ إذا ما عد من ســـقط المتـــاع[١]

---

(١) معاني الكلمات: **دريئة** هدف يتعلم الرمي عليه ، **جـذع**: شـــاب، **البصـــير**: العقل، **قارح** : قوي • **يعتبط** : بموت شابا•

أسباب نهضة الشعر وازدهاره

١ - عروبة الدولة رجالا وسياسة[٢] .

٢ - ترحيب الخلفاء والولاة بالشعر والشعراء .

٣ - نشوء وكثرة الأحزاب السياسية .

٤ - حياة الفراغ والاستقرار (لمعاوية).

٥ - حياة الجد والزهد والفتح والغزو .

٦ - إهاجة كثير من خلفاء بني أمية للعصبية بين القبائل.

٧ - عناية علماء اللغة بالشعر والشعراء نقدا وموازنة.

(١) **طارت شعاعا**: تبددت من الخوف، **تراعي**: تفزعى، **الخنع**: اللين، **اليراع**: الجبن، **يعتبط**: يموت شابا، **سقط المتاع**: رديئه .

(٢) حلقتا عصري صدر الإسلام وبني أمية ١١ د/ محمد عبدالمنعم العربي.

خصائص الشعر الأموي

١- الألفاظ والأساليب:

يعرف الأستاذ / أحمد الشايب، الأسلوب بأنه: "طريقة اختيار الألفاظ وتأليفها، للتعبير بها عن المعاني قصد الإقناع والتأثير، أو هو طريقة التفكير والتصوير والتعبير ..."(١).

ويقول ابن خلدون: إن الأسلوب هو: "المنوال الذي ينسج فيه التراكيب، أو القالب الذي يفرغ فيه"(٢).

ومن هنا يتبين لنا أن الأسلوب هو المنهج، أو الطريقة ، أو الوسيلة التي يلجأ إليها الأديب، لاختيار الكيفية التي يريد أن يوصل بها أفكاره ومعانيه، التي أعمل ذهنه فيها، إلي الناس.

كما أنه ينقل عاطفته وآراءه إلي الآخرين، وبه يعرف مدي قدرة الأديب وتمكنه من ناصية اللغة، وحسن استخدامه لها، ومعرفة طرائق التعبير والتصوير لعاطفته، وتأثيره في القارئ أو السامع .

وقد ظهر ذلك جليا في الأدب الأموي ـ شعره ونثره، متأثرا بالعوامل والأحداث المختلفة، وكان من أهم هذه المؤثرات:

١- **القرآن الكريم:** وقد أثر تأثيرا كبيرا في الشعر والشعراء، فقد لجأ إليه الشعراء وتأثروا بألفاظه ومعانيه، واستمدوا من روعة أساليبه، وعذوبة ألفاظه ، وإشراق ديباجته، فجاءت ألفاظ الشعراء الأمويين

---

(١) الأسلوب ص٣٣، ٣٩ أ/ أحمد الشايب .
(٢) مقدمة ابن خلدون ص٥٧٠ .

متسمة بالفخامة والجزالة، وبخاصة في أغراض الفخر والمدح ووصف البادية، وما فيها من حش وصخر ٠

أما في الغزل فجاءت ألفاظهم عذبة رقيقة لتناسب الغرض٠

٢ـ **الحديث النبوي الشريف:** كان لبلاغة سيدنا رسول الله ﷺ وروائع بيانه، ما دفع شعراء – وخطباء – عصر بني أمية إلي التأثر بهذا الأسلوب النبوي العالي، والذي يأتي (ثانيا) بعد أسلوب القرآن الكريم، مما ساعد علي رقي أساليب الشعر، وسمو معانيه، وروعة خياله، ورقة حاشيته، وصفاء ديباجته٠

٣ـ **اتباع أساليب الجاهليين:** وذلك بكثرة رواية الشعر الجاهلي واستظهاره والأخذ ، عباراته وأساليبه، والتعبير بصوره في وصف الصحراء ، والحيوان ٠ وفي شعر النقائض ما يكفي للاستشهاد علي هذا التأثر بألفاظ وأساليب الجاهليين٠

٤ـ **البيئة:** اختلفت البيئة في العصر الأموي، فجاء شعرهم سهلا في العواصم والمدن (تبعا لتحضرها، وسهولة العيش فيها) وجاء صعبا وعرا لمن اتخذوا البادية والصحراء سكنا لهم ،كشعر الفرزدق والأخطل ٠

ومن المعالم البارزة – شيوع الأراجيز وتطويلها، وعناية الشعراء بها ٠

ومن أمثلته قول رؤبة:

يا صاح ما هاج الدموع الذرفا .:. من طلل أمسي تخال الصحفا

رسومه والمــذهب المزخرفــا .·. وكل رجــاف يســوق الرجفــا

دواخســا فــي الأرض إلا شــعفا

* * *

ب ـ المعاني والأخيلة :

جاءت ــ غالبا ــ تكرار، لمعاني وأخيلة القدماء ، وتوسعوا فيها تبعا للأحداث التي طرأت علي حياتهم ، والتقدم والرقي الذي صــاروا إليه ٠

الاختلاط بين العرب والعجم:

اتسعت أرجاء الدولة الأموية، فكان من ممتلكاتها بلــدان فــارس وبعض الولايات الأخري، التي كانت تابعة لبلاد الروم كمصر واليمن وأخذت جماعات من أبناء هذه الولايات ينفرون إلــي دمشــق، طلبــا للمال، والعمل، واختلطت هذه الجماعات والعرب من أبناء الدولة، فأثر ذلك في معاني الشعر وأخيلته ٠

وقد ظهر أثر ذلك الاختلاط في معاني الشعر التي اتسمت بالدقة والعمق، وفي الأفكار بالترتيب والوضوح، وفــي الأخيلــة بالاتســاع والخصوبة والتنوع، وتأثروا بحضارة وثقافة تلك الأمم ٠

٥ ـ شيوع الحكمة والأمثال(١):

فمن الحدمة قول (نصيب) في الصداقة:

ولا خير في ود امرئ متكــاره .·. عليك ولا في صاحب لا توافقــه

(١) حلقتا عصري صدر الإسلام وبني أمية ص٥١ د/ محمد عبدالمنعم العربي٠

وقول أبي الأسود الدؤلي:

يأيها الرجـل المعلـم غيـره .·. هـلا لنفسـك كـان ذا التعلـيم

تصف الدواءلذي السقام وذي الضنا .·. كيمـا يصـح بـه وأنـت سـقيم

ابدأ بنفسك فانهها عن غيهـا .·. فإذا انتهت عنـه فأنـت حكـيم

* * *

ثانيا ـ النثر

أ ـ الخطابة:

إن الإسلام في عهد النبوة المبارك ، وعهد الخلفاء الراشدين قـد أرسي دعائم الخطابة العربية ، ووضع لها أمتن الأسباب التي أعطتها الدفعة الحقيقية في سبيل الرقي والتطور ، فكانت خطابة عربية نقيـة خالصة لم تتأثر بخطابة أرسطو أو غيره من فلاسفة اليونـان الـذين ترجمت أعمالهم فيما بعد .

وفي عهد الدولة الأموية : ازدهرت الخطابة العربيـة ازدهـارا كبيرا ، وذلك بفضل ما أتيح لها من الأسباب ، وما هيـيء لهـا مـن الميادين والمجالات .

فالعصر الأموي ، حافـل بالاضـطرابات السياسـية والحربيـة والاتجاهات المذهبية ، ولذا فقد ارتقت الخطابة رقيا بعيدا في العصـر الأموي ، ونشطت نشاطا ، لعل العرب لم يعرفوه فـي عصـر مـن عصورهم الوسيطة ، إذ اتخذوها أداتهم في أرائهم السياسية والانتصار في مجادلاتهم المذهبية " (١) .

وقد كثرت الاتجاهات وتشعبت ، من زبيريين وشيعة وخوراج ، وكان علي الدولة الأموية أن تواجه هذه الاتجاهات كلها ، فاتخذت من الخطابة سلاحا تواجه به ادعاءات هذه الأحزاب ،وتفند ما جاءت بـه من دعاوي ، حما أن هذه الأحزاب نفسها كان لها خطباء برعوا فـي

---

(١) د / شوقي ضيف الفن ومذاهبه في النثر العربي ٦٧ .

هذا الفن ، فكان التصاول بين أتباع الاتجاهات المتعددة ميدانا خصبا لارتقاء فن الخطابة .

فازدهرت الخطابة السياسية في العصر الأموي، وافتن الخطباء فيها فتميزت بخصائص شتي لم تجتمع كلها للخطابة في الجاهلية ولافي صدر الإسلام ،ولم تجمع لها في العصر العباسي [١].

هذا بالإضافة إلي أن ولاة الأمة كانوا عربا تهزهم حلاوة الكلمة ويؤثر فيهم جزل الألفاظ ومحكم الأساليب ، وإشراق الديباجة ،وبديع الرونق ،وبلاغة النطق ، وروعة البيان فكانوا مولعين بهذا الفن من أساليب الكلام ، كما كانوا يربون أبناءهم ويعدونهم ليوم يقفون فيه امام شعوبهم ،يدافعون عن مبدأ ، أو يردون اعتراضا ، أو يحرضون علي عدو ، وهكذا كانت الخطابة سلاحا امتشقه السياسيون من بني أمية .

وكان المعارضون لسياسة الأمويين يتسلحون بالخطابة ويعتمدون عليها وبخاصة في خطب الجمعة والمناسبات الدينية، يثيرون بها حماس الجماهير المسلمة ، ويحرضون بها الناس للثورة علي الدولة الأموية .

واستمرت الدولة في بحر من الدم والصراع والنزاع السياسي لأنها قامت أصلا علي نظرية الثأر " فالدعوة إلي الأخذ بدم عثمان كانت هي الفكرة التي نبت منها السلطان للأموية واستمر نحو تسعين سنة وسط السيوف والرماح المشرعة ،والدم المهراق، ولم يسكن الناس

---

(١) د/ أحمد محمد الحوفي فن الخطابة ٢٣٩ .

لها إلا بعد أن سفكت دماء ،وهتك الحمي ، فقد أبيحت المدينة في عهد يزيد بن معاوية وقتل الحسين قتلة فاجرة ، وكان بعد ذلك ما كان من خروج ابن الزبير واتساع سلطانه ثم استقامة الأمر لعبدالملك بن مروان " [١].

وفي العصر الأموي زاد اختلاط العرب بالأعاجم ،إلا أن الأمويين كانوا متمسكين بعروبتهم محافظين عليها ، بل إنهم أثاروا بعض العصبيات العربية القديمة مما كان له أثره في النزاع العربي القبلي وإحياء الثارات الجاهلية ، وجري ذلك كله بلسان عربي كان له أثره في الأساليب الخطابية .

غير أن هذا الاختلاط كانت له آثار أخري ، فقد كان أهل هذه البلاد المفتوحة كالفرس وغيرهم علي جانب من الثقافات الفلسفية والجدلية ، وعرفوها من طول اختلاطهم بالروم والهند أو من قراءاتهم في كتب هؤلاء القوم ، فلما اختلط بهم العرب ، أخذوا عنهم أساليب الجدل والمناقشة ،واستخدموا ذلك كله في خطابتهم ، ثم اتسع ذلك وزاد في العصر العباسي .

وإذا استعرضنا أشهر خطباء هذا العصر من مختلف الاتجاهات ، فسنجد منهم معاوية بن أبي سفيان ، وعمرو بن العاص — من الأمويين .

---

(١) الشيخ محمد أبو زهرة الخطابة : أصولها وتاريخها ٢٩٠ .

وقد أورد الجاحظ خطبا لمعاوية ، منها خطبته التي رواها شعيب بن صفوان : [١]

ولما حضرت معاوية الوفاة قال لمولي له : من بالباب ؟ قال : نفر من قريش يتبا شرون بموتك . فقال : ويحك . ولم ؟ قال : لا أدري . قال : فوالله ما لهم بعدي إلا الذي يسوؤهم ، وأذن للناس فدخلوا ، فحمد الله وأثني عليه (وأوجر) ثم قال :

أيها الناس : إنا قد أصبحنا في دهر عنود ، وزمن شديد ، يعد فيه المحسن مسيئا ، ويزداد فيه الظالم عنوا ، ولا ننتفع بما علمناه ، ولا نسأل عما جهلناه ، ولا نتخوف قارعة حتي تحل بنا ، فالناس علي أربعة أصناف: منهم من لا يمنعه الفساد في الأرض إلا مهانة نفسه وكلال حده ، ونضيض وفره ،ومنهم المصلت لسيفه ، المجلب بخيله ورجله ، والمعلن بسره ،قد أشرط لذلك نفسه ، وأوبق دينه ، لحطام ينتهزه ، أو مقنب يقوده أو منبر يفرعه ، ولبئس المتجر أن تراها لنفسك ثمنا ،ومما لك عند الله عوضا ومنهم من يطلب الدنيا بعمل الآخرة، ولا يطلب الآخرة بعمل الدنيا ، قد طامن من شخصه، وقارب من خطوه ، وشمر من ثوبه ، وزخرف نفسه للأمانة ،واتخذ ستر الله ذريعة إلي المعصية ، ومنهم من أقعده عن طلب الملك ضؤوله نفسه ، وانقطاع من سببه، فقصرت به الحال عن أمله ، فتحلي باسم القناعة ، وتزين بلباس الزهادة ، وليس من ذلك في مراح ولا مغدي .

(١) الجاحظ البيان والتبيين ٥٩/٢ ، ٦٠ ، ٦١ .

وبقي رجال غض أبصارهم زكر المرجع ، وأراق دموعهم خوف المحشر ، فهم بين شريد نارد ، وخائف منقمع ، وساكت مكعوم ، وداع مخلص ، وموجع ثكلان قد وشملتهم التقية ، وشملته الذلة ، فهم في بحر أجاج ، أفواههم ضامرة، وقلوبهم قرحة ، قد وعظوا حتي ملوا ، وقهروا حتي دلوا ،وقتلوا حتي قلوا.

قلتكن الدنيا في عيونكم أصغر من حثالة القرظ ، وقراضة الجلمين ، واتعظوا بمن كان قبلكم ، قبل ان يتعظ بكم من يأتي بعدكم ، فارفضوها ذميمة ، فإنها رفضت من كان أشغف بها منكم " .

* * *

وفي الجوانب الأخري من الدولة كان يقف الخوارج والشيعة وغيرهم، يناوئون الأمويين ويتهمونهم بعدم أحقيتهم في الخلافة ، ويصفونهم بالظلم والعدوان ومن أشهر خطباء الخوارج قطري بن الفجاءة، ومن خطبه (١) .

" أما بعد فإني أحذركم الدنيا ، فإنها خلوة خضرة ، حفت بالشهوات ، وراقت بالقليل، وتحببت بالعاجلة وحليت بالآمال ، وتزينت بالغرور ، لا تدوم حبرتها ، ولا تؤمن فجعتها ، غرارة ضرارة ، خوانة غدارة ، حائلة زائلة ، نافدة بائدة ، أكالة غوالة ، بدلة نقالة ، لا تعدو إذا هي تناهت إلي أمنية أهل الرغبة فيها والرضا عنها ، أن تكون كما قال الله : كما أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله علي كل شيء مقتدرا"

---

(١) الجاحظ البيان والتبيين ١٢٦/٢ .

مع أن امرأ لم يكن منها فيحيرة إلا أعقبته بعدها عبرة ، ولم يلق من سرائها بطنا إلا منحته من ضرائها ظهرا ،ولم تطله غيبة رخاء إلا هطلت عليه مزنة بلاء ، وحري إذا أضحت له منتصرة أن تمسي لـــه خاذلة متنكرة ، وإن جانب منها اعذوذب واحلولي أمر عليــه وأوبـــي وإن اتت امرأ من غضارتها ورفاهتها نعما ، أرهقته من نوائبها نقمـــا ولم يمس امرؤ منها في جناح أمن إلا أصبح منها علي قوادم حـــذف ، غرارة غرور ما فيها ، فانية فان من علها ، لاخير في شيء من زادها إلي التقوى ، من أقل منها استكثر مما يؤمنه ٠

ومن استكثر منها استكثر مما يوبقه ويطيل حزنه ، ويبكي عينه ، كم واثق بها قد فجعته، وذي طمأنينة إليها قد صرعته ، وذي اختيـــال فيها قد خدعته ، وكم من ذي ابهة وفيها قد صيرته حقيرا ،وذي نخوة قد ردته ذليلا ، وكم من ذي تاج قد كبته لليدين والفم ٠ ســـلطانها رول ،وعيشها رنق ، وعذبها أجاج ،وحلوها صـــبر ، وغـــذاؤها ســمام ، وأسبابها رمام ، وقطافها سلع ، حيها بعـــرض مـــوت ، وصـــحيحها بعرض سقم ، ومنيعها بعرض اهتضام مليكهـــا مســـلوب ،وعزيزهـــا مغلوب ،وسليمها منكوب ،وجامعها محـــروب ، مـــع أن وراء ذلـــك سكرات الموت ، وهول ا لمطلع ، والوقوف بين يدي الحكم العـــدل " ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسني" (١).

ألستم في مساكن من كان أطول منكم أعمارا ، وأوضح آثـــارا ، وأعد عديدا ، وأكثف جنودا وأعند عنودا ، وتعبدوا الـــدنيا أي تعبـــد ،

(١) سورة النجم آية ٣١ ٠

وآثروها أي إيثار ، وظعنوا عنها بالكره والصغار، فهل بلغكم أن الدنيا سمحت لهم نفسا بفدية ، أو أغنت عنهم فيما قد أهلكتهم بخطب ،بل قد أرهقتهم بالفوادح ، وضعضعتهم بالنوائب ، وعقرتهم بالمصائب، وقد رأيتم تنكرها لمن دان لها وآثرها ، وأخلد إليها ، حين ظعنوا عنها لفراق الأبد إلي آخر المسند، هل زودتهم إلا الشقاء ؟ وأحلتهم إلا الضنك ، أو نورت لهم إلا الظلمة، أو أعقبتهم إلا الندامة ٠ فهذه تؤثرون؟ أم عليها تحرصون ؟ أم إليها تطمئنون؟ يقول الله : (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهو فيها لا يبخسون أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون) [١] فبئست الدار لمن أقام عليها ، فاعموا وأنتم تعلمون أنكم تاركوها لابد ، فإنما هي كما وصفها الله باللعب واللهو ، وقد قال الله (تبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون) [٢] وذكر الذين قالوا من أشد منا قوة ، ثم قال :

حملوا إلي قبورهم فلا يدعون ركبانا ، وأنزلوا فيها فلا يدعون ضيفانا ، وجعل لهم من الضريح أجنان ،ومن التراب أكفان ،ومن الرفات جيران ، فهم جيرة لا يجيبون داعيا ، ولا يمنعون ضيما ، إن أخصبوا لم يفرحوا ، وإن أقحطوا لم يقنطوا ، جميع وهم آحاد ، وجيرة وهم أبعاد، متناءون لا يزارون ولا يزورون ، حلماء قد ذهبت أضغانهم ، وجهلاء قد ماتت أحقادهم، لا يخشي فجعهم ، ولا يرجي

---

(١) الآية ١٥ من سورة هود ٠
(٢) الآية ١٢٨ من سورة الشعراء ٠

دفعهم ، وكما قال عزوجل : ﴿ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾[١] استبدلوا بظهر الأرض بطنا ، وبالسعة ضيقا ، وبالأهل غربة ،وبالنور ظلمة ، فجاءوها كما فارقوها : حفاة عـراة فرادي ، غير أنهم ظعنوا بأعمالهم إلي الحياة الدائمة ،وإلي خلود الأبد ـــ يقـول الله تعـالى :﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾[٢] فاحـذروا مـا حـذركم الله ،وانتفعـوا بمواعظـه ، واعتصموا بحبله،عصمنا الله وإياكم بطاعته،ورزقنا وإياكم أداء حقه" .

* * *

ومن خطباء الخوارج أيضا : أبو حمزة الخـارجي ، وقـد روي الجاحظ له هذه الخطبة[٣] كما أوردها الطبري في (١٠٨/٩) وصاحب الأغاني في (١٠٤/٢٠ ، ١٠٥) .

يقول الجاحظ : [٤]

" دخل أبو حمزه الخارجي مكة ــ وهو أحد نسـاك الإ باضـية وخطبائهم ،واسمه يحيي بن المختار ــ فصعد منبرها متوكئـا علـي قوس له عربية ، فحمد الله وأثني عليه، ثم قـال :" أيهـا النـاس : إن رسول الله صلي الله عليه وسلم كان لا يتأخر ولا يتقـدم إلا بـإذن الله وأمره ووحيه ، أنزل الله كتابا بين له فيه ما يأتي وما يتقي ، ولم يـك

---

(١) الآية ٥٨ من سورة القصص .
(٢) الآية ١٠٤ من سورة الأنبياء .
(٣) الخطبة مذكورة أيضا في : العقد الفريد ١٤١/٤ ، صبح الأعشـي ٢٢٣/١ عيون الأخبار ٢٥٠/٢ ونهاية الأرب ٢٥٠/٧ .
(٤) الجاحظ البيان والتبيين ١٢٢/٢ وما بعدها .

في شك من دينه ، ولا في شبهة من أمره ، ثم قبضـــه الله وقـــد علـــم المسلمين معالم دينهم ، وولي ابا بكر صلاتهم ، فولاه المسلمون أمـــر ديناهم حين ولاه رسول الله أمر دينهم ،فقاتل أهـــل الـــردة ، وعمـــل بالكتاب والسنة فمضي لسبيله رحمة الله عليه .

ثم وليعمر بن الخطاب رحمه الله ، فسار بسيرة صاحبه ، وعمل بالكتاب والسنة وجبي الفيء ، وفرض الأعطية ، وجمع النـــاس فـــي شهر رمضان ، وجلد في الخمر ثمانين ، وغزا العدد فـــي بلادهـــم ، ومضي لسبيله رحمة الله عليه .

ثم ولي عثمان بن عفان، فسار ست سنين بسيرة صاحبيه ، وكان دونهما، ثم سار في الست الأواخر بما أحبط به الأوائل ،ثـــم مضـــي لسبيله ثم ولي علي بن أبي طالب ، فلم يبلغ من الحق قصـــدا ، ولـــم يرفع له منارا ، ثم مضي لسبيله .

ثم ولي معاوية بن أبي سفيان، لعين رسول الله وابن لعينه ، فاتخذ عباد الله خولا ،ومال الله دولا ، ودينه دغلا ، ثـــم مضـــي لســـبيله ، فالعنوه لعنه الله .

ثم ولي يزيد بن معاوية ،ويزيد الخمور ، ويزيد القرود ،ويزيـــد الفهود، الفاسق في بطنه ، المـــأمون فـــي فرجـــه ، فعليـــه لعنـــة الله وملائكته.

ثم اقتصتهم خليفة خليفة ، فلما انتهي إلي عمر بـــن عبـــدالعزيز أعرض عنه ولم يذكره، ثم قال :

ثم ولي يزيد بن عبدالملك الفاسق في دينه ، المأمون في فرجـه ، الذي لم يؤنس منه رشد ، وقد قال الله تعالي في أموال اليتامي : ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوٓا إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾[1] فأمر أمة محمد عليه السلام أعظم ، يأكل الحرام، ويشرب الخمر ، ويلبس الحلة قومت بألف دينار ، قـد ضربت فيها الأبشار وهتكت فيها الأستار ، وأخذت من غيـر حلهـا حبابة عن يمينه ، وسلامة عن يساره ، تغنيانه، حتي إذا أخذ الشـراب منه كل مأخذ ، قد ثوبه ثم التفت إلي أحداهما فقال : ألا أطيـر ؟ ألا أطير؟.

نعم . فطر إلي لعنة الله ، وحريق ناره ، وأليم عذابه .

وأما بنو أمية ، ففرقة الضلالة ، بطشهم بطش جبرته ، يأخـذون بالظنة، ويقضون بالهوي ، ويقتلون علي الغضب ،ويحكمون بالشفاعة ،ويأخذون الفريضة من غير موضعها ، ويضعونها في غير أهلهـا ، وقد بين الله أهلها، فجعلهم ثمانية أصـناف ، فقـال : ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾[2] فأقبل صنف تاسع ليس منها فأخـذها كلها تلكم الفرقة الحاكمة بغير ما أنزل الله .

وأما هذه الشيع فشيع ظاهرت بكتاب الله ، وأعلنوا الفرية علي الله لم يفارقوا الناس ببصر نافذ في الدين، ولا بعلم نافـذ فـي القـرآن ،

---

(١) الآية ٦ من سورة النساء .
(٢) الآية ٦٠ من سورة التوبة .

ينقمون المعصية علي أهلها ، ويعملون إذا ولوا بها • يصرون علـــي الفتية ،ولا يعرفون المخرج منها ، جفاة عن القرآن ،أبتـــاع كهـــان ، يؤملون الدول في بعث الموتي ، ويعتقدون الرجعة إلي الدنيا ، فلـــدوا دينهم رجلا لا ينظر لهم ، قاتلهم الله أني يؤفكون •

ثم أقبل علي أهل الحجاز فقال :

ياأهل الحجاز : أتعيرونني بأصحابي وتزعمون أنهـــم شـــباب ؟ وهل كان أصحاب رسول الله صلي الله عليه وسلم إلا شبابا • أما والله أني تعالم بتتايعكم فيما يضركم في معادكم ، ولولا اشـــتغالي بغيـــركم عنكم ما تركت الأخذ فوق أيديكم •

شباب والله مكتهلون في شبابهم ، غبية عن الشر أعيـــنهم ،ثقيلـــة عن الباطل أرجلهم أنضاء عبادة ، وأطلاح سهر ، ينظر الله إليهم فـــي جوف الليل منحنية أصلابهم علي أجزاء القرآن ، كلما مر أحدهم بآية من ذكر الجنة بكي شوقا إليها ، وإذا مر بآية من ذكر النار شهق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه • موصول كلالهم بكلالهـــم : كـــلال الليـــل بكلال النهار • قد أكلت الأرض ركبهم وأيديهم وأنـــوفهم وجبـــاههم ، واستقلوا ذلك في جنب الله ، حتي إذا رأوا السهام قد فوقت ، والرماح قد أشرعت ، والسيوف قد انتضيت ، ورعدت الكتيبة بصواعق الموت وبرقت ، استخفوا بوعيد الكتيبة لوعد الله ،ومضي الشاب منهم قـــدما حتي اختلفت رجلاه علي عنق فرسه ،وتخضبت بالدماء محاسن وجهه فأسرعت إليه سباع الأرض ،وانحطت عليه طير السماء ، فكـــم مـــن عين في منقار طائر، طالما بكي صاحبها في جوف الليل من خوف الله

وكم من كف زالت عن معصمها طالما اعتمد عليها صاحبها في جوف الليل بالسجود لله ، ثم قال ثلاثا: (آه ٠ آه ٠ آه) ثم بكي ونزل٠

* * *

هاتان الخطبتان تظهران مدي قوة الخطابة العربية في العصر الأموي ، وارتفاع مستواها الفكري واللغوي ، وتوضحان إلي أي مدي كانت الخطابة أداة للدين والسياسة والحكم ، إذ تتجلي الحرية السياسية التي تقوم عليها الخطابة السياسية ، وهذه الحرية تمثل نهضة سياسية واجتماعية ، حيث " تطلق الحريات علي عقالها ، وتؤلب الجماعات ، فتنهض الخطابة " (١) .

وأري أن ما سبق في " التوجيه الأدبي (٢) من أن الخطابة العربية في ذلك العصر ازدهرت في " خطب المحافل والتفاخر والتشاجر ، الخطب أمام العظماء والخلفاء والأمراء ، وخطب الصلح وإشعال الحرب وخطب الخطوب والنوازل ، والخطب الدينية في المساجد ، ولكن لم ينبغوا في الخطب السياسية في الشئون العامة ، ولا في الخطب القضائية " .

أري أن هذا الرأي غير صحيح فيما يتعلق بعدم نبوغهم في الخطب السياسية ، والدليل علي صدق ما أقول هذه النماذج التي سقت بعضها، فهي تصور حرية الرأي لكل جماعة ، وتصديها بالحجة والمنطق، واستدلالها علي رأيها ، وتفنيد آراء الآخرين ، كما أن

---

(١) د أحمد الشايب أصول النقد الأدبي ٧٩ ــ ٨٩ .
(٢) د طه حسن وآخرون التوجيه الأدبي ٥٣ .

الكتاب يسوق تعليلا لهذا الرأي بأن العرب لم يعرفوا الحياة البرلمانية وشبهها، فإنه رأي لا يقدم تعليلا حقيقيا أو عمليا لما ساقه أصحاب الكتاب ، لأن ما يراه مانعا من نبوغ العرب في الخطابة السياسية إنما ينصرف إلي نوع آخر من أنواع الخطابة هو الخطابة النيابية .

وأري أن من دواعي ازدهار الخطابة ورقيها في العصر الأموي أنها تمثل أدبا ثوريا ، يقوم علي أساس الدعوة إلي تغيير الأوضاع التي يراها البعض غير صالحة، أو قامت علي أساس غير عادل ، ونتيجة لهذه الانفعالات التي تموج بها نفوس الخطباء ، تكون الخطابة القوية لأن " الخطابة تعتمد علي الثورة ، فالثورة تبعث علي الخطابة وتخلق الخطباء ، والثورة وليدة الانفعال ، كما أنها تولد الانفعال والخطابة بنت الانفعال ، وباعثة الانفعال " (١) .

وقد كان لا تساع الثقافة الفكرية في ذلك العصر أثر في رقي الخطابة، نتيجة كثرة المدارس التي وجدت آنذاك ، وكان النشاط الجدلي أبرز مظاهرها ، وحدث تطور فكري وحضاري أنتج لونا جديدا من الخطابة العربية يستخدم الجدل وبدائيات المنطق، وكان هذا اللون غير متأثر بالثقافة اليونانية التي لم تكن قد ترجمت بعد إلي العربية، وكانت الناحية الفكرية غنية خصبة ، استمدت هذا الغني من العقلية العربية الواعية، التي تمرست وقرأت ، فكثر الشعراء والكتاب والخطباء ، وآذنوا بنهضة فكرية أدبية ، كان لها دورها في صرح الحضارة العربية ، وشهدت بتفوق العقلية العربية التي يصر أعداؤها

---

(١) د محمد طاهر درويش . الخطابة في صدر الإسلام ١٠٦ .

علي نعتها بالتخلف والتبعية، والأخذ من ثقافة اليونان التي لم تترجم إلا بعد مائة عام من هذه الفترة . وكان (الحسن البصري) أبرز خطباء هذا العصر في الخطابة الدينية [١] .

* * *

من هذا نخلص إلي أن الخطابة ازدهرت في العصر الأموي للعوامل الآتية :

١- تعدد الأحزاب السياسية .

٢- الحرية التي تمثلت في إطلاق الآراء السياسية والعقائدية وتمثلت في حلم معاوية وتجاوزه عن أعدائه " وإذا كانت الحكومة الأموية قد حاربت الأحزاب، فإن هذه الحروب كانت تؤرث الخطابة،وتفسح مجال القول أمام الخطباء"[٢] .

كما أن المعارضين كانت لديهم الشجاعة في إبداء رأيهم ومجابهة الحكام .

٣- كثرة الحروب والثورات .

٤- فصاحة الحكام وعروبتهم .

٥- تقدير الخطباء .

٦- الجدل المحتدم بين الفرق الدينية .

وكان لها من الخصائص الفنية ما يلي :

---

(١) انظر الجاحظ. البيان والتبيين ٣/١٣٢ وما بعدها .
(٢) د شوقي ضيف. تاريخ الأدب العربي ــ العصر الإسلامي ٢٣٩ .

الإعداد: وهو تهيئة الخطيب نفسه لما يقول ٠

الافتتاح : بالحمد والثناء، أو بالتهديد والوعيد أو خشن القول أو الهجوم علي الموضوع مباشرة ٠

الأجزاء : المتمثلة فيالمقدمة والعرض والخاتمة

العنف والتهديد

التخييل والتصوير[١] وذلك لمشابهة الخطابة الأموية للشعر في التشبية والاستعارات والكنايات والطباق والمقابلة ٠

التعبير : يتمثل في قوة العبارة وجزالتها ، وقصر الجمل والعناية بالوقع والرنين ، ويغلب الإيجاز المعتدل ٠

التأثربالقرآن الكريم : يتمثل في حرصهم علي تصريع خطبهم بأيات القرآن الكريم ٠

الاستشهاد بالشعر : كثر في الخطابة الأموية الاستشهاد بالشعر٠

القياس : ففي بعض خطبهم قياس منطقي معتمد علي الفطرة لا علي الدرس والتعلم ٠

* * *

ولما تغيرت الحريات ، وفتر اهتمام حكام بني أمية ، بدأت الخطابة في التدهور والتخلف٠ وكان " أول وهن دخل علي سلطان الخطابة في الإسلام في عهد الوليد بن عبدالملك، حين بدأ يخطب علي

---

(١) انظر : د/ أحمد محمد الحوفي٠ فن الخطابة ٢٤٨ ــ ٢٥١ ٠

المنبر جالسا ...... ومن ثم دب دبيب الاستهانة بهذا الموقف، العظيم الشأن ،الجليل الشرف، حتي مجه الخلفاء والأمراء، وانحط عنه القادة"[١]

وانتقل زمام الخطابة بعد ذلك إلي الرغبة، وتحول سلطان الخطابة إلي قوي جديدة، استغلته في القضاء علي الدولة الأموية واسقاطها " كما أن الخطابة لم تتبوأ مكانتها في الدولة الأموية بالأندلس" . [٢]

* * *

وإذا نظرنا إلي موقف الخطابة في مصر آنذاك (في عهد الدولة الأموية) فإننا سنجد أن الخطابة وبقية الأجناس الأدبية لم يطرأ عليها تغيير، ولم يزد عليها شيء " فها هي الخطابة واقفة عند حدها التي عرفت لها في العهد السابق، يقوم بها الوالي يوم يحضر إلي مصر خطيبا علي منبر مسجدها الجامع بالفسطاط معلنا ولايته ، ثم هو يتعهدها في كل أسبوع يوم الجمعة واعظا مذكرا متناولا شئون السياسة، محذرا من الفتنة، داعيا إلي اجتماع الكلمة ،وكذلك يقوم بها يوم يحدث من الرعية أو الجيش، ما يوجب نهوض الأمير بتجلية الحقيقة ، وتقويم المعوج، وتعديل الزيغ ، كما يكون الداعي إليها في أحيان كثيرة إعلان الرأي في حرب أو سلم "[٣] .

* * *

---

(١) علي محفوظ، فن الخطابة وإعداد الخطيب ٢٩ .
(٢) د. أشرف محمد موسي. الخطابة العربية وفن الإلقاء ٦٥ .
(٣) محمود مصطفي الأدب العربي في مصر من الفتح الإسلامي ٥١ .

ومن نماذج الخطابة في مصر في ذلك العصر ــ علي قلة الوارد منها في كتب الأدب ــ ما أورده صاحب النجوم الزاهرة ٠ حيث قال:

" لما قدم عتبة إلي مصر سنة ٤٣ هــ ، أقام بها شهرا، ثم خـــرج منها وافدا علي أخيه معاوية بدمشق ،واستخلف علي مصر عبدالله بـــن قيس ، وكانت في عبدالله المذكور شدة ، فكرهه الناس بمصر ، فبلـــغ ذلك عتبة ، فرجع إلي مصر، وصعد المنبر فقال :

" ياأهل مصر : تعذرون ببعض المنع منكم ، لبعض الجور عليكم وقد وليكم من إن قال فعل ، فإن أبتيم درأكم بيده ، فإن أبيـــتم درأكـــم بسيفه، ثم جاء في الآخر ما أدرك في الأول ، إن البيعة شـــائعة ، لنـــا عليكم السمع والطاعة ، ولكم علينا العدل ، فأينا غدر فلا ذمة له عنـــد صاحبه ٠(١)

فناداه المصريون من جنبات المسجد : سمعا سمعا ، فناداهم عتبـــة : عدلا عدلا ثم نزل٠

---

(١) ابن تغري بردي ٠النجوم الزاهرة ١٢٤/١ ٠

(من خطباء بني أمية)

١ـ الحجاج الثقفي:

الحجاج : هو أبو محمد الحجاج بن يوسف الثقفي أحد جبابرة العرب، وساستها، وموطد ملك بني أمية ، وأحد البلغاء والخطباء المصاقع • ولد سنة ٤١هـ .

خدم الحجاج بولاية عبدالملك بن مروان ،وابنيه الوليد وسليمان حتي كان ، ملكه ما بين الشام والصين، ومات سنة ٩٥هـ في عهد سليمان في مدينة واسط بالعراق .

وكان الحجاج آية في البلاغة وفصاحة اللسان وقوة الحجة ، قال الأصمعي: أربعة لم يلحنوا في جد: ولا هزل الشعبي وعبدالملك بن مروان والحجاج بين يوسف وابن القرية• والحجاج أفصحهم .

ومن مآثره: اهتمامه بوضع النقط والشكل للمصحف وغيره ، ونسخه عدة مصاحف من مصحف عثمان وأرسالها إلى بقية الأمصار.

ومن خطبه الشهيرة خطبته لما قدم أميرا علي العراق (١).

فإنه دخل المسجد معتما بعمامة قد غطي بها أكثر وجهه ، متقلدا سيفه وتنكبا قوسا ، يؤم المنبر• فقال الناس نحوه ، حتي صعد المنبر ، فمكث ساعة لا يتكلم • فقال الناس لبعضهم قبح الله بني أمية ، حيث

(١) جواهر الأدب ٣٨٢ ، ٣٨٣

تستعمل مثل هذا علي العراق . فلما رأي عيون الناس إليه . حسـر اللثام عن فيه، ونهض ثم قال :

أنا ابن جلا وطـلاع الثنايـا .:. متي أضع العمامة تعرفـوني

ثم قال : يا أهل الكوفة . إني لأري رءوسا قـد أينعـت وحـان قطافها وإني لصاحبها، وكأني أنظر الي الدماء بين العمائم واللحـي ، ثم قال:

هذا أوان الشد فاشتدي زيـم .:. قد لفها الليل بسـواق حطـم

ليس براعي إبـل ولا غـنم .:. ولا بجزار علي ظهر وضـم

قـد لفهـا الليـل بعصـلبي .:. أروع خـراج مـن الـدوي

مهـاجر لـيس بـأعرابي

قد شمرت عن ساقها فشـدوا .:. وجدت الحرب بكـم فجـدوا

والقوس فيهـا وتـر عـرد .:. مثـل ذراع البكـر أو أشـد

لابـد ممـا لـيس منـه بـد

* * *

إني الله يا أهل العراق ، ما يقعقع لي بالشنان ، ولا يغمز جـانبي كتغماز التين ، ولقد فررت عن ذكاء ، وفتشت عن تجربة ، وإن أمير المؤمنين ــ أطال الله بقاءه ــ نثر كنانته بين يديـه ،فعجـم عيـدانها فوجدني أمرها عودا ،وأصلبها مكسرا ، فرماكم بـي، لأنكـم طالمـا أوضعتم في الفتنة واضطجعتم في وراقد الضـلال ، والله لأحـزمنكم

حزم السلمة[١] ولاضربنكم ضرب[٢] غرائب الإبل ، فانكم لكأهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بـأنعم الله فأذاقها الله لناس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون .

وإني ــ والله ــ ما أقول إلا وفيت ، ولا أهـم الا أمضـيت، ولا أخلق [٣]، إلا فريت[٤] وإن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطيـاتكم وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة ــ وإني أقسـم بالله ــ لا أجد رجلا تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيـام، إلا ضـربت عنقه.

* * *

٢ ـ طارق بن زياد

هو أحد قواد جيوش الوليد عبدالملك، كان خطيبا مصقعا ، وبطلا مقداما ، بعيد الهمة ، يعشق المجد ،وتصبو نفسـه إلـي الفتوحـات . خرج من المغرب سنة ٩٢هـ باثني عشر ألف جندي مـن مواطنيـه يقلهم اسطول قوى ، قد جهز لذلك ،وعبر البحر إلي اسبانيا لفتحهـا ، فلما علم رودريك ملكها بقدوم المسلمين إلي بلاده،قابلهم بجيش عظيم ، هالت طارقا كثرة عدده ، وكمال عدده، فبادر وأحرق أسطوله .

---

(١) نوع من الشجر .
(٢) تضرب عند الهرب وعند الخلاف .
(٣) أكدر
(٤) قطعت

ليقطع أمل أصحابه في الرجوع ،وقال لهم ... أيها النـــاس إلـــخ فاندفعوا علي الأسبان اندفاع اليائس ، وهزموهم شر هزيمة، ثم والـــي طارق فتوحاته في إسبانيا، حتي قبض علي رددريـــك آخـــر ملـــوك القيزيغوط بها وقتله سنة ٩٤هـــ وبعد ذلك بسنة استقدمه الوليـــد إلـــي دمشق إلى أن مات سنة ١٠١هـــ.[١] .

خطبة طارق بن زياد عند فتح الأندلس :

أيها الناس أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم ،ولـــيس لكم والله إلا الصدق والصبر ، واعلم أنكم في هذه الجزيزة أضيع مـــن الأيتام في مأدبة اللئام ، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه ،وأسلحته وأقواتـــه موفورة ، وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم ،ولا أقوات إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم ،وإن امتدت بكم الأيام علي افتقاركم ،ولم تنجزوا لكم أمرا ذهب بكم ، وتفوضت القلوب من رعبها عـــنكم الجـــرأة علـــيكم فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم، بمناجزة هذه الطاغية فقد ألقت به اليكم مدينته الحصينة، وإن انتهاز الفرصة فيه لممكـــن إن سمحتم لأنفسكم بالموت ، وإني لم أحذركم أمرا آتا عنه بنجـــرة ، ولا حملتكم علي خطة أرخص متاع فيها النفوس ــ أبدأ بنفسي ...

واعلموا أنكم إن صبرتم علي الأشق قليلا استمتعتم بالأرفه الألـــذ طويلا ــ فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي ، فما حظكم فيه بـــأوفر مـــن حظي ــ وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيزة من الخيرات العميمة ، وقد

---

(١) جواهر الأدب ــ الهاشمي ٣٨٤ .

انتحنكم الوليد بن عبدالملك ـ أمير المؤمنين ـ من الأبطال عربانا ، ورضيكم لملوك هذه الجزيزة أصهارا وأختانا ، ثقة منه بارتباحكم للطعان ، واستماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان ، ليكون مغنمها خالصة لكم وعن دوته، ومن دون المؤمنين سواكم ، والله تعالي ولى أنجادكم علي ما يكون لكم ذكرا فى الدارين .

واعلموا أني أول مجيب إلي ما دعوتكم إليه ، وأنى عند ملتقي الجمعين حامل بنفسي علي طاغية القوم، لذريق " فقاتله إن شاء الله تعالي فاحملوا معي ، فإن هلكت بعدت فقد كفيتم أمره، ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم إليه، وإن هلكت قبل وصولي إليه فاحلفوني في عزيمتي هذه ، واحملوا بأنفسكم عليه ،واكتفوا لهم من فتح هذه الجزيرة بقتله [١] .

---

(١) جواهر الأدب الهاشمي ٢٨٥ .

تعريب الدواوين

كان عمر بن الخطاب ــ ﷺ ــ أول من دون الدواوين، أي أنشأها، وكانت الدواوين المركزية تستعمل اللغة العربية، لأنها لغة الدولة الرسمية .

أما **دواوين الولايات**، فتستعمل اللغات المحلية لولايتها، فكانت مصر تستعمل اللغة القبطية والرومية، وفي العراق كانت اللغة الفارسية (البهلوية) وفي الشام كانت الرومانية.

وأصل كلمة (ديوان) معناها في الفارسية (الشيطان)، لأن سيدنا عمر ــ ﷺ ــ عندما زار إحدي الولايات في العراق، دخل مكانا سمع فيه همهمة، فلما سأل عنه ــ قالوا له: إنه (الديوان) أي أن الأصوات الغامضة التي سمعها تشبه أصوات الجن .

فكان أن أنشأ أول ديوان، وهو (ديوان الجند) (١) وكان يقوم علي تنظيم الجند وأعطياتهم وسجلات بأسمائهم .

وكان عمرو بن العاص أول من دون ديوانا للجند بمصر، ثم عبدالعزيز بن مروان، وكان أهل الديوان في مصر أربعين ألفا.

ثم أنشئ (ديوان الخراج) وكان يختص بالشئون المالية، كتنظيم الضرائب وجبايتها، والنظر في مشكلاتها، وتوزيعها وتحديد مقدارها وإعفاء من يستحق الإعفاء منها .

---

(١) الوليد بن عبدالملك ١٦٩ وما بعدها د/ سيدة إسماعيل كاشف ــ سلسلة أعلام العرب / ١٧ .

وفي عهد الوليد بن عبدالملك عرف (ديوان المستغلات) وكان الغرض منه إدارة الأبنية والحوانيت والعمارات.

ديوان البريد: ويقال إن معاوية بن أبي سفيان هو أول من وضع ديوان البريد، لوصول الأخبار إليه بسرعة من جميع أطراف البلاد – وكان البريد نظاما رسميا حكوميا.

وفي عهد عبدالملك بن مروان – بدأت حركة (التنظيم والتعديل) فعمد عبدالملك إلي صبغ الدولة بصبغة عربية، وإلي الاعتماد علي موظفين من العرب، أو ممن يتقنون اللغة العربية .

ج ـ الرسالة

مأخوذة من الإرسال، بمعني الإطلاق الذي يفيد التحـــرر مـــن القيود والالتزامات،فهي في أصل وجودها ملاحظ فيها تلك العبارات .

وربما سميت الرسالة رسالة، لأنها تكون رسولا بين اثنين، تنقـل عن الأول إلي الثاني عتبه وسخطه، ورضاه وغضبه، وشوقه وهيامه، وهكذا كل ما هو مأخوذ من تلك المادة مثل أرسل ورسالة، ويقال علي رسلك .

ونحن نري أن الرسالة مع كونها واسطة بين اثنين، فيها كـذلك الريث والتؤدة .

وهى كتابة تعتمد علي التفكير والتأمل والأناقة والتجمـل، وكـد الخاطر، وإتعاب الذهن، واستخدام الذوق وهى نوعان:

أ ـ ديوانية: تصدر عن ديوان الحاكم. خليفة أمير مؤمنين ، والي: صاحب السلطان، بوعد أو وعيد، أو دعوة إلي الجهاد في سبيل الله، أو عقد أمان، أو عقد صلح وأشهر كتابها محمد بن عبـدالملك الزيـات، وابن العميد، وكثيرا ما يكون كاتب الديوان زعيم مدرسة أدبية، تتميـز بخصائصها ومقوماتها وطابعها في البيان الأدبي.

وكان لهؤلاء الكتاب تقاليد يلتزمون بها بعـد البسـملة والحمـد والصلاة علي النبي (ﷺ) في البدء والختام ، وفـي أسـلوب الكتابـة نفسها.

ب - إخوانية: ليست صادرة عن جهة رسمية، ولا تتصدي لعلاج مشكلة سياسية أو اجتماعية تصدر عن الأديب، حرة الغرض والهدف لا تتحكم فيها سياسة، ولا يضبط لجامها سلطان، ولا يمسك بزمامها حاكم، ولا يدفع دفتها مسلط.

الأديب يستجيب فيها لميله، ويلبي بها هواتف نفسه، ويشبع بها نهم عواطفه الصارخة، ووجداناته الملتهبة، وشعوره الفياض، يعاتب بها صديقا، أو يتشوق إلي خليل، أو يواسي مصابا، أو يناظر ندا، أو يجادل خصما، أو يهفو إلي وطن، ويحن إلي عطن، أو يصف روضا أو يتنزه في بساتين المعرفة.

وهذا النوع علي الأخص، مجال من مجالات السبق والأناقة، والفحولة والإبداع.

ب ـ الكتابة في العصر الأموي

(١)

لم تعرف الكتابة في العصر الجاهلي ، فالعربي حينذاك أمـــي لا يقرأ ولا يكتب، كل همه حرب يشنها علي أعدائه، أو معركة يخوضها ضد خصومه، أو مفاخرة يتباهي بها، أو منافرة يسعي إليها بمآثره، فلم يجلس إلي العلماء، ولم يتزود بشئ من الثقافة .

(٢)

أما في **صدر الإسلام** فقد انتشرت الكتابة، وعني بها رســـول الله ﷺ، وخلفاؤه من بعده؛ لحاجتهم إليها في تصريف شئون المسلمين .

وعندما هاجر الرسول عليه السلام إلي المدينة أولاهـــا اهتمامـــا أكبر، فجعل فداء الأسير من المشركين تعليم عشـــرة مـــن المســـلمين الكتابة والقراءة، وحث علي تعلمها، واتخذ كتابا للوحي، وكتابا آخرين لإحصاء الغنائم، وللرد علي رسائل الملوك ودعوتهم هم وشعوبهم إلي الدخول في الإسلام .

وفي **عهد عمر** أنشئت الدواوين، فازدادت العناية بالكتابة، واشتد الاهتمام بها، وكان من الدواوين التي أنشئت في عهد عمـــر، ديـــوان الجيش لكتابة أسماء الجند وأنسابهم وأعطياتهم، وديوان الخراج لتنظيم إيرادات الدولة ومصروفاتها، وكان عمر يحث الكتاب ويحضهم عليها فيقول: (إن القوة علي العمل ألا تؤخروا عمل اليوم إلي الغد، فإنكم إن

فعلتم ذلك تذاعبت عليكم الأعمال، فلا تـدرون بأيهـا تبـدأون وأيهـا تؤخرون)٠

وكانت الكتابة في هذا العصر — عصر صدر الإسلام — بسيطة في مظهرها، بليغة في جوهرها، يغلب عليها الطبـع وتـرك التكلـف وتشيع فيها السهولة والوضوح، كما تتسم بالإيجاز، ولا يظهر فيها أثر للتأنق والتهذيب والتنقيح واختيار الأساليب وانتقاء الألفاظ٠

(٣)

وجاء **العصر الأمـوي**، والكتابة علي هذا النحو، غير أن اتسـاع أعمال الخلفاء ، وكثرة شئون الحكم، وتعدد الدواوين استدعي، العنايـة بها أكثر من ذي قبل، فقد زاد معاوية من الدواوين:

١ – **ديوان الرسائل**: وهو الديوان الذي يقوم بكتابـة الرسـائل التي تصدر عن دار الخلافة، واصطنع الخلفاء كتابا لهـذه الرسـائل، فاتخذ معاوية عبيد الله بن قيس الغساني كاتبه عليها. وكانت الرسـائل التي تصدر عن هذا الديوان، تفيض بيانا، بما ينضـرها مـن جمـال الأسلوب وسحر البلاغة. إذ كان الخليفة هو الذي يتولي إملاء الرسائل بنفسه، ولم تظهر شخصية الكتاب إلا في عهد سالم مولي هشـام بـن عبدالملك، وكاتبه علي الرسائل ، فقد كان ينوب عنه في كتابة بعـض الرسائل ، وكان يذيلها بما ينم علي أنه منشئها ٠

وكان الطابع العام للرسائل التي تصدر عن ديوان الرسائل أو ترد إليه، ولو كان الخليفة، وظل الأمر علي هذا النحو حتي جاء عهد الوليد

ابن عبدالملك، فأنف أن يكتب إليه مع تأخير اسمه، فأخـذت الرسـائل سمتا آخر، يلائم رغبة الخلفاء، ويرضي كبرياءهم، ولم يخـرج علـي هذا النظام فيما بعد، إلا عمر بن عبدالعزيز ويزيد الكامل.

٢ – **ديوان الخاتم:** ومهمة هذا الديوان أن يقوم بختم الرسـائل التي ترد إليه، والتي يكون للخليفة عليها توقيع، لتصدر منه مختومـة دون أن يدري حامله ما فيها، بحيث لا يستطيع أن يغيـر فيهـا شـيئا وسبب إنشاء هذا الديوان ما روي أن معاوية أحال رجلا علي زياد بن أبيه أمير العراق بمائة ألف درهم، فمضي الرجـل، وجعـل المائـة مائتين، فلما رفع زياد حسابه إلي معاوية، أنكر ذلك، ثم تبـين حقيقـة الأمر ، فأمر بوضع ديوان الخاتم ، فصارت التوقيعات تصـدر منـه مختومة.

أنواع الكتابة:

نحن لا يهمنا دراسة آثار ديوان الخاتم، ولا ديـوان الخـراج، إذ الكتابة فيهما لم تكن تهتم إلا بالأرقام والإحصاء، دون أن يكون لهمـا حظ من بلاغة القول، ولا نصيب من جمال الأسلوب، وإنما الذي يعنينا دراسة ما كان يصدر عن **ديوان الرسائل** من الكتب البليغة الصـادرة إلي الولاة والقواد وعمال الدولة، وهي كتابـة سياسـية فـي الأعـم الأغلب.

ويهمنا كذلك أن ندرس ما استجد في آخـر هـذا العصـر مـن (الرسائل الإخوانية) وهي التي ينشئها الكتاب البلغاء ، فتحمل ما فـي

قلوبهم من مودة وإخاء، أو تصور ما تجيش بها مشاعرهم من خـوالج ونزعات، أو تعبر عما يتردد في نفوسهم من أفكار وآراء في أسـلوب راق ولفظ جميل٠

فهذان اللونان . هما أهم ما أثر من الكتابة الفنية في هذا العصـر وهما ما ينبغي أن نعني بدراسته، ونهتم بالحديث عنه٠

خصائص الكتابة الفنية:

وإذا نظرنا إلي الكتابة في هذا العصر نجد أنها مرت بطـورين وانقسمت إلي عهدين:

١ـ **العهد الأول:** من قيام الدولة عام ٤١هـ إلي خلافة الوليد بـن عبدالملك ، وتتسم الكتابة في هذا العهد بالسهولة والوضوح والإيجـاز وعدم التكلف، كما كانت عليه في عصر صدر الإسلام، وكان أغلبهـا يملي ارتجالا وتصدر عن ديوان رسائل الخليفة، أو دواويـن رسـائل الولاة٠

يقول الدكتور طه حسين[1]: كانت الرسائل تصدر عـن الخلفـاء والأمراء في أول أمرها يسيرة سهلة الأسلوب، لا تكلف فيهـا، ولـم تظهر الرسائل الفنية التي تأنق فيها إلا في أوائل القرن الثاني٠

٢ـ **العهد الثاني:** من أيام الوليد بن عبدالملك حتي نهاية الدولـة وقد أخذت الكتابة تتدرج في التأنق والصنعة والإطناب وسحر البيـان حتي صارت صناعة فنية لها أصولها وقواعدها، والـذي قـام بهـذا

---

(١) من حديث الشعر والنثر ص٥٢، ٥٣ ٠

التطور العظيم في مجال الكتابة، هم الموالي الذين حذقوا الثقافة العربية بجانب ثقافاتهم التي ورثوها عن أممهم العريقة في العلم أمثـــال أبـــي العلاء سالم مولي هشام بن عبدالملك وكاتبـــه، وأســـتاذه عبدالحميـــد الكاتب، وجبلة بن سالم، كاتب هشام أيضا، وعبدالحميـــد بـــن يحيـــي، الكاتب الذي ضرب به المثل، فقيل بدئت الكتابة بعد عبدالحميـــد، فقـــد احتفل بالكتابة وتأنق فيها، ونقلها إلي مرحلة جديدة، اختلت فيها المنزلة الرفيعة التي كانت للخطابة.

والحق أن عبدالحميد الكاتب، جدير بأن يكون شيخ الكتـــاب لمـــا حباه الله من مواهب عظيمة، وذكاء نادر، ثم هو تلميـــذ ســـالم مـــولي هشام، وثقافته خليط من العربية واليونانية، ثم كان صديقا مخالطا لابن المقفع الذي يجيد الفارسية والعربية، فاجتمع له أسمي ما فـــي بلاغـــة العرب واليونان والفرس.

مذهب عبدالحميد في الكتابة:

استطاع عبدالحميد الكاتب بمواهبه العظيمة وثقافته الواســـعة، أن يبتكر في الكتابة الفنية مذهبا عرف به، كان من أهم أصوله:

١ - **القدرة علي الإيجاز في غير إخلال** حين يكون الإيجاز مطلوبـــا **وعلي الإطالة في غير إملال** حين يكون الطول مرغوبا فيه حتي قيل : إنه كان يكتب في سطر واحد ما يكتبه في صفحات.

وقالوا: إنه كان لقدرته علي الإيجاز في موضعه والإطناب فـــي مكانه، يتخير لكل منهما محله الذي يناسبه، فيطنب في الإخبار بالفتوح

والحث علي الجهاد، والوعد والوعيد، ويوجز في أخبار الهزائم ووصف الأعداء ، ومن إيجاز قوله موصيا بشخص: (حق وصل كتابي إليك كحقه علي، إذ جعله موضعا لأمله، ورآني أهلا لحاجته، وقد أنجزت حاجته فصدق أمله) ، ومن إطنابه أنه كتب إلي ابي مسلم الخراساني حين أظهر الدعوة لبني العباس علي لسان مروان بن محمد كتابا يستميله فيه، وقال لمروان: لقد كتبت كتابا متي قرأه بطل تدبيره فإن يك ذاك، وإلا فالهلاك ، وكان الكتاب لكبر حجمه يحمل علي بعير فلما وصل إلي أبي مسلم أمر بإحراقه قبل أن يقرأه، وكتب علي جذاذة منه: محا السيف أسطار البلاغة وانتحي .. عليك ليوث الغاب من كل جانب .

٢ – **أكثر عبدالحميد الكاتب من الرسائل الإخوانية**، وكانت قبله قليلة ضئيلة .

٣ – **كما أطال في البدء والختام**، وأكثر من تنويعهما حسب المقام وأطال في البدء بعبارات التحميد والثناء بما يعد جديدا في هذا العصر. كالإتيان بكثير من التحميدات في أساليب متنوعة وصور مختلفة، وكالبدء ببسم الله ثم إتباعها بالحمد لله، فاصلا بينهما بأما بعد.

٤ – تجويد الأسلوب والتأنق فيه والعناية به عناية كبيرة .

عوامل نهضة الكتابة في آخر العصر الأموي:

احتلت الكتابة الفنية منزلة رفيعة في العهد الثاني من العصر الأموي، وازدهرت ازدهارا عظيما، ويرجع السر في ذلك إلي:

١ - اتساع أعمال الدولة وتعدد دواوين الرسائل، مما تطلب العناية بالكتابة وتجويدها والاهتمام بالكتاب القائمين بها.

٢ - عناية الكتاب واحتفالهم بها، إذ جعلوها صناعة فنية يتبارون فيها وساعدهم علي ذلك تعدد ثقافاتهم العربية والأجنبية، التي كان لها أثرها في الكتابة، حتي ليقال: إن عبدالحميد أول من نقل تقاليد الفرس إلي الكتابة العربية[١].

٣ - وكان لضعف الملكات العربية من أثر الاختلاط بين العرب والأعاجم وتشعب الأعمال، أثر كبير في النهوض بالكتابة، إذ قل الحرص علي الخطابة، فاحتلت الكتابة مكانها، فذاعت واشتهرت.

٤ - كما كان للموالي ـ من أبناء الفرس والروم واليونان ورثة الثقافة والمدنية ـ أثر عظيم في نهضة الكتابة، وتحولها إلي صناعة فنية ، لها منهجها وأصولها، ونظامها في البدء والختام وكان لأذواقهم أثر في اتسامها بالسهولة والوضوح. وفي البعد عن الغريب والوحشي والتعقيد والتنافر وتفكك المعاني والأفكار فاشتدت الصلة بين كل جملة وأختها، وقل الاعتراض بين أجزاء الكلام.

---

(١) النثر الفني لزكي مبارك جـ١ ص٥٧.

د ـ التوقيعات

وقبل أن أنهي الحديث عن الكتابة الفنية في هذا العصر أشير إلي لون جديد ظهر بوضوح أثناءه، ذلك هو التوقيع، وهو الكتابة علي حواشي الرسائل، التي ترفع إلي ذوي الشأن بما يفيد العلم بها، وإبداء الرأي فيها، وتمتاز التوقيعات بالإيجاز الشديد، ولطف الإشارة وقوة الإثارة، وسلامة العبارة، وغالبا ما يكون التوقيع آية مقتبسة أو حديثا مرويا، أو حكمة صائبة، أو مثلا سائرا ، أو بيتا من الشعر .

وفن التوقيع موجود من قديم في الأدب الفارسي، ووجد في الأدب العربي منذ صدر الإسلام. إذ يقال إن أول ما عرف من ذلك كان لعمر بن الخطاب ﷺ إذ كتب إلي سعد بن أبي وقاص في بنيان: (ابن مايستر من الشمس، ويكن من المطر) ووقع إلي عمرو بن العاص: (كن لرعيتك ، كما تحب أن يكون لك أميرك) .... ووقع عبدالملك بن مروان في كتاب للحجاج شكا فيه أهل العراق: (أرفق بهم، فإنه لا يكون مع الرفق ما تكره، ومع الخرق ما تحب) .

وكتب عمر بن عبدالعزيز توقيعا علي كتاب عامل له يستأذنه في تجديد بناء مدينة (ابنها بالعدل ، رفق طرقها من الظلم) .

وكتب إليه عامله علي الكوفة يخبره أنه فعل في أمر فعل عمر ابن الخطاب فوقع له: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ ﴾ ووقع سليمان بن عبدالملك لقتيبة بن مسلم ، حين كتب إليه يتهدده بالخلع: زعم الفرزدق أن سيقتل مربعا .. أبشر بطول سلامة يا مربع .

والذي دعا إلي ذيوع التوقيعات في هذا العصر، ما تكـــاثر مـــن مظاهر الملك، وتنوع شئون الدولة، وتعدد حاجات النـــاس ومطـــالبهم فكان لابد للخلفاء والولاة أن يدلوا في كل ذلك برأي، ويشـــيروا بمـــا لديهم من تدبير٠ ومن هنا اضطروا إلي الإيجاز في التعليق واصطناع الحكمة فيما يختارون من توقع٠

نموذج من الرسائل الإخوانية في العصر الأموي:

كتب عبدالحميد رسالة إلي أهله وهو منهزم من مروان بن محمد يقول فيها: أما بعد: فإن الله تعالي جعل الدنيا محفوفة بالكره والسرور، فمن ساعده الحظ فيها سكن إليها، ومن عضته بنابها ذمها ساخطا عليها، وشكاها مستزيدا لها[١]، وقد كانت أذاقشا أفاويق[٢] استحليناها، ثم جمحت[٣] بنافرة، ورمحتنا[٤] مولية، فملح عذبها، وخش لينها فأبعدتنا عن الأوطان، وفرقتنا عن الإخوان، فالدار نازحة[٥]، والطير بارحة[٦]وقد كتبت إليكم والأيام تزيدنا منكم بعدا، وإليكم وجدا، فإن تتم البلية إلي آخر مدتها، يكن آخر العهد بكم وبنا، وإن يلحقنا ظفر جارح من أظفار من يليكم، نرجع إليكم بذل الإسار والذل امر جار .. نسأل الله الذي يعز من يشاء ويذل من يشاء ، أن يهب لنا ولكم ألفة جامعة في دار آمنة، تجمع سلامة الأبدان والأديان، فإنه رب العالمين، وأرحم الراحمين) .

---

(١) يقول: إن الإنسان في شكايته الدنيا لا ينتصف منها، بل كأنه يستزيدها .

(٢) **الأفاويق:** جمع أفواق: والأفواق جمع فيقة، وهي اللبن الذي يجتمع في الضرع بين الحلبتين .

(٣) **جمحت الدابة:** غلبت راكبها .

(٤) **رمح الفرس** : رفس .

(٥) **النازح** : البعيد .

(٦) **البارح من الطير:** ما مر من ميامنك إلي مياسرك، ومن الناس من يتشاءم به ويتطير منه .

يلزم في الرسالة أن تكون:

١ - محكمة النسج، قوية الأسلوب، جزلة الألفاظ، لا يتعثر فيها اللسان، ولا ينفر من كلماتها السمع، أو يبغضها الطبع٠

٢ - أن تكون واضحة الهدف، ظـاهرة الغـرض، لا تلتـوي مسالكها، ولا تتوعر طرقاتها، ولا تشتبه معالمها، ولا يعلوها ضـباب الحيرة، أو ظلمة الشك٠

٣ـ أن يكون موضوعها طريفا، وفكرتهـا جديـدة، ومعانيهـا مترابطة يأخذ بعضها بحجز بعض، ويؤاخي الأول الآخـر، والسـابق اللاحق٠

٤ـــ أن تتجنـب التـاريخ البغـيض، والحـوادث المؤلمـة، والموضوعات التي تصطدم مع ميول الناس وعـواطفهم، وطبـاعهم وغرائزهم ، وبخاصة إذا كانت موجهة إلي عامتهم ٠

٥ ـ ألا يخرج الكاتب فيها من غرض إلي غرض، حتي يعطيه حقه من الكمال والوفاء، والارتباط والتسلسل٠

أما الصناعة اللفظية القائمة علي المحسـنات البديعيـة، فإنـه لا يصح أن يجعلها همه، بل يدعها تجيء عفوا مـن غيـر معانـاة ولا تكلف٠

أهم خصائص الكتابة في العصر الأموي

كانت الكتابة قبل (سالم) و(عبدالحميد) جارية علي النسق العربي الصرف، وعلي الفطرة التي لا مجال فيها إلا للجمال الطبيعي والإحسان المرتجل، وكانت أميل في أسلوبها إلي الإيجاز، وكان إتقانها يقوم علي (الموهبة) قبل أي اعتبار آخر، فجاءت نهضة هذين الزعيمين بها قائمة علي:

١ - **ضرورة صقل الموهبة** لدي من يتصدي للاشتغال بهذه الصناعة، وذلك بعدة أمور، منها: حفظ القرآن الكريم، وفهم معانيه، والتزود بعلوم الشريعة ، والتضلع في العربية، ورواية شعرها ونثرها، والإلمام بأيام العرب، وأخبارها القديمة، والاطلاع علي تواريخ الأمم ، وعلي محاسن آدابها، ولاسيما في اللغتين الفارسية والرومية؛ للاستفادة من كل ذلك في كتاباتهم وطرق أدائهم، بالإضافة إلي تجويد الخط وتحسينه، حتي تكتمل للكتابة روعتها، وحتي تصير (فنا من الفنون الأنيقة) التي تدخل جودتها علي النفوس سرورا وبهجة، وقد أثرت هذه النهضة في جيل سالم وعبدالحميد **فظهرت في كتاباتهم الخصائص التالية :**

١ - التأنق في صوغ العبارات وتخير الألفاظ والأساليب.
٢ - التقليل من استعمال الغريب، وهجر الحوشي من الكلمات.
٣ - شدة العناية بربط الجمل بعضها ببعض، وتجنب الاقتضاب.

٤ - إدخال روائع الحكم والأمثال، والصور المستمدة من القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، والمأخوذة من عيون الشعر.

٥ - الإكثار من التحميدات في افتتاحية الرسائل.

٦ - تقسيم الرسالة إلي فقرات، تستوعب كل منها عنصرا من عناصر مضمونها.

٧ - الميل إلي الإطناب، وبخاصة في أواخر العصر.

نماذج من الكتابة الأموية:

١ - كتاب محمد بن علي بن أبي طالب - إلي أخيه (الحسين بن علي) رضى الله عنهما.

(وكان قد جري بينهما كلام وافترقا متغاضبين، فلما وصل محمد إلي منزله، كتب إلي الحسين: بعد البسملة) : "من محمد بن علي، إلي أخيه الحسين بن علي:

أما بعد: فإن لك شرفا لا أبلغه، وفضلا لا أدركه، فإن أمي امرأة من بني حنيفة، وأمك فاطمة بنت رسول الله - ﷺ - ولو كان ملء الأرض نساء مثل أمي ما وفين بأمك.

فإذا قرأت رقعتي هذه، فالبس رداءك ونعليك، وسر إلي لترضيني، وإياك أن أسبقك إلي هذا الفضل الذي أنت أولي به مني والسلام".

فلما قرأ الحسين الرسالة قام من فوره، وجاء إليه وترضاه.

كتابة إخوانية، **موضوعها:** إصلاح ذات البين، وعلاج ما يشجر ــ عادة ــ بين الأهل والأقرباء من خلاف٠

وتمتاز: بالإيجاز، وسهولة الألفاظ، ووضوح المعني ، وبالصراحة، والاعتراف بالفضل لأهله، وسوق الحجة المقنعة لما هو مطلوب، وبذلك بلغت المرجو في نفس من وجهت إليه، وأصابت غرضها، وحققت هدفها ٠

صفة الإمام العادل للحسن البصري:

لما ولي (عمر بن عبدالعزيز) الخلافة، كتب إلي (الحسن البصري) أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل، فكتب إليه الحسن هذه الرسالة:

"اعلم يا أمير المؤمنين . أن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل، وقصد كل جائر، وصلاح كل فاسد، وقوة كل ضعيف، ونصفة كل مظلوم، ومفزع كل ملهوف٠

والإمام العادل، يا أمير المؤمنين، كالراعي الشفيق علي إبله الرفيق بها، الذي يرتاد لها أطيب المرعي، ويذودها عن مراتع الهلكة ويحميها من السباع، ويكنفها من أذي الحر والقر ٠

والإمام العادل، يا أمير المؤمنين كالأب الحاني علي ولده، يسعي لهم صغارا، ويعلمهم كبارا ، يكتسب لهم في حياته، ويدخر لهم بعد مماته٠

والإمام العادل، يا أمير المـؤمنين، وصـي اليتـامي، وخـازن المساكين، يربي صغيرهم، ويمون كبيرهم.

والإمام العادل: يا أمير المؤمنين والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوانح ، تصلح الجوارج بصلاحه ، وتفسد بفساده هـو القائم بين الله وبين عباده، يسمع كلام الله ويسمعهم، وينظـر إلـي الله ويريهم، وينقاد إلي الله، ويقودهم.

فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملكك الله، كعبد اسـتأمنه سـيده، واستحفظه ماله وعياله، فبدد المال ، وشرد العيال.

واعلم يا أمير المؤمنين، أن الله أنزل الحدود، ليزجر بهـا عـن الخبائث والفواحش، فكيف إذا أتاها من يليها؟ وأن الله أنزل القصـاص حياة لعباده، فكيف إذا قتلهم من يقتص لهم؟

واذكـر يا أمير المؤمنين: الموت وما بعده، وقلة أشياعك عنـده، وأنصارك عليه، فتزود له، ولما بعده من الفزع الأكبر.

واذكر يا أمير المؤمنين: إذا بعثر ما في القبور، وحصل ما فـي الصدور، فالأسرار ظاهرة ، والكتاب "لا يغادر صغيرة ولا كبيرة".

فالآن يا أمير المؤمنين ، وأنت في مهل قبل حلول الأجل.

لا تحكم يا أمير المؤمنين في عباد الله بحكم الجاهلين، ولا تسـلك بهم سبيل الظالمين، ولا تسلط المستكبرين علي المستضعفين، فإنهم لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة، فتبوء بأوزارك وأوزارهـم، وتحمـل

أثقالك وأثقالا مع أثقالك، ولا يغرنك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك، ويأكلون الطيبات في دنياهم، بإذهاب طيباتك في آخرتك، ولا تنظر إلي قدرتك اليوم، ولكن انظر إلي قدرتك غدا، وأنت مأسور في حبائل الموت، ثم موقوف . بين يدي الله تعالي في مجمع من الملائكة والنبيين والمرسلين، وقد عنت الوجوه للحي القيوم.

إني يا أمير المؤمنين – وإن لم أبلغ بعظتي ما بلغه أولو النهي من قبلي – لم آلك شفقة ونصحا، فأنزل كتابي إليك كمداوي حبيبه، بسفيه الأدوية الكريهة لما يرجو له في ذلك من العافية والصحة. والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

رسالة **(وعظية)** في الوعظ والنصيحة ، استعمل أسلوب الإطناب والإسهاب، صاغها في عبارات بليغة مؤثرة، مع وضوح المضمون وترابط الفكرة ، وجملها بالكثير من التشبيهات لتقريب المعني .

عبدالحميد الكاتب

هو عبدالحميد بن يحيى بن سعيد العامري الشامي شيخ الكتـــاب الأوائل ٠ كان فى أول الأمر معلم صبيان ، حتى فطن له مروان بـــن محمد أيام توليته أرمينية ، فكتب له عدة ولايته ، حتى إذا بلغه مبايعـــة أهل الشام له بالخلافة ، سجد مروان ولم لم نسجد، فقال: ولم أســـجد؟ أعلى أن كنت معنا فطرت عنا؟ فقال : ولم أسجد، أعلى أن كنت معنا فطرت عنا ؟ قال : إذا تطير معى ٠ قال: الآن طـــاب لـــى الســـجود وسجد فاتخذه مروان كاتب دولته ٠

لما دهمت مروان جيوش خراسان أنصار الدولة العباسية وتوالت عليه الهزائم وكان عبدالحميد يلازمه فى كل هذه الشدة فقال له مروان قد احتجت أن تصير مع عدوى ، وتظهر الغدر لى فإن إعجابهم بأدبك ،وحاجتهم إلى كتابتك يحوجهم إلى حسن الظن بك ، فإن اســـتطعت أن تنفعنى فى حياتى ،وإلا لم تعجز عن حفظ حرمى بعد وفاتى ٠

فقال له :إن الذى أشرت به على أرتفع الأمرين لك وأقبحها بى ، وما عندى إلا الصبر حتى يفتح الله عليك أو أقتل معك ،وأفسد٠

أسر وفاء ثم أظهر غدرة ٠٠ فمن لى بعذر بوسع الناس ظاهر عنه

وبقى معه حتى تقل مروان سنة ١٣٢ هـــ ،وأخذ عبدالحميد إلـــى السفاح فقتله سنة ١٣٢هـــ٠

الخاتمة

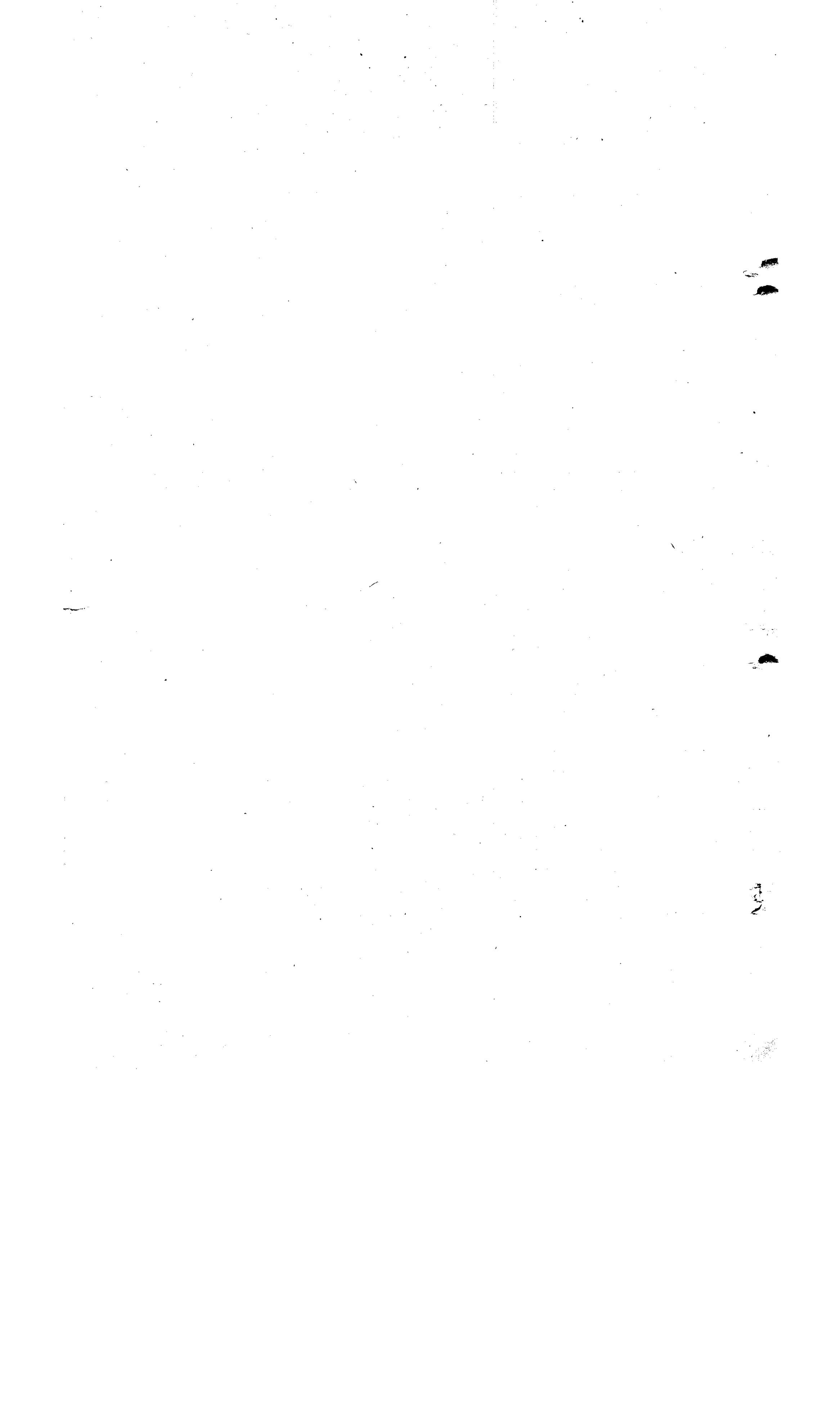
اللهم لك الحمد ، أنت هديتنا ووفقتنا فتم بعونك هذا الجهد ، الذى نرجو به رضاك ووجهك.

فتقبل منا إنك أنت السميع ، ولك الحمد فى الأولى والآخرة.

الأستاذ الدكتور

رفعت زكى محمود

فهرس الموضوعات




مهيب صبري مهيب
للطباعة
الزقازيق - الحسينية